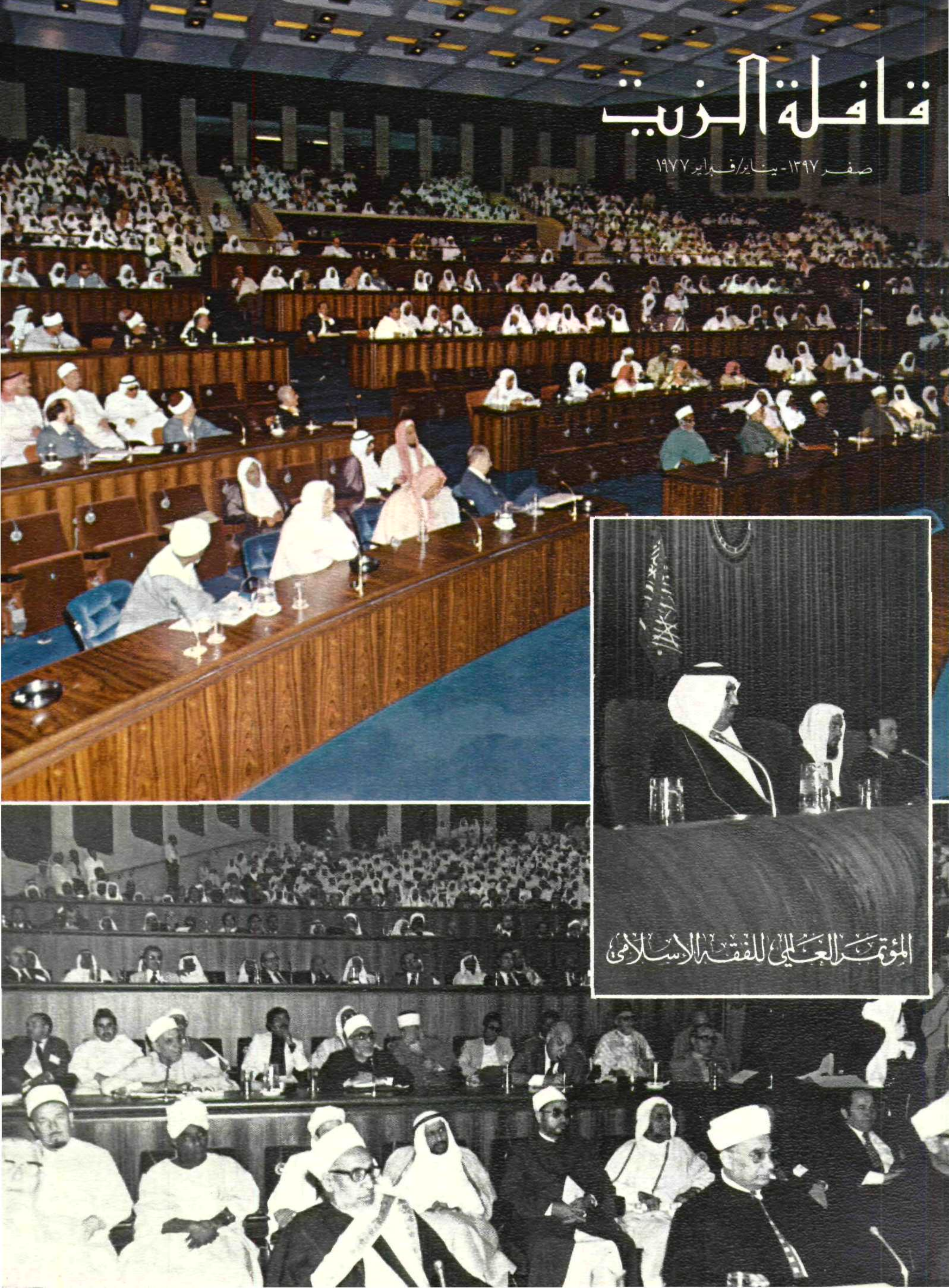
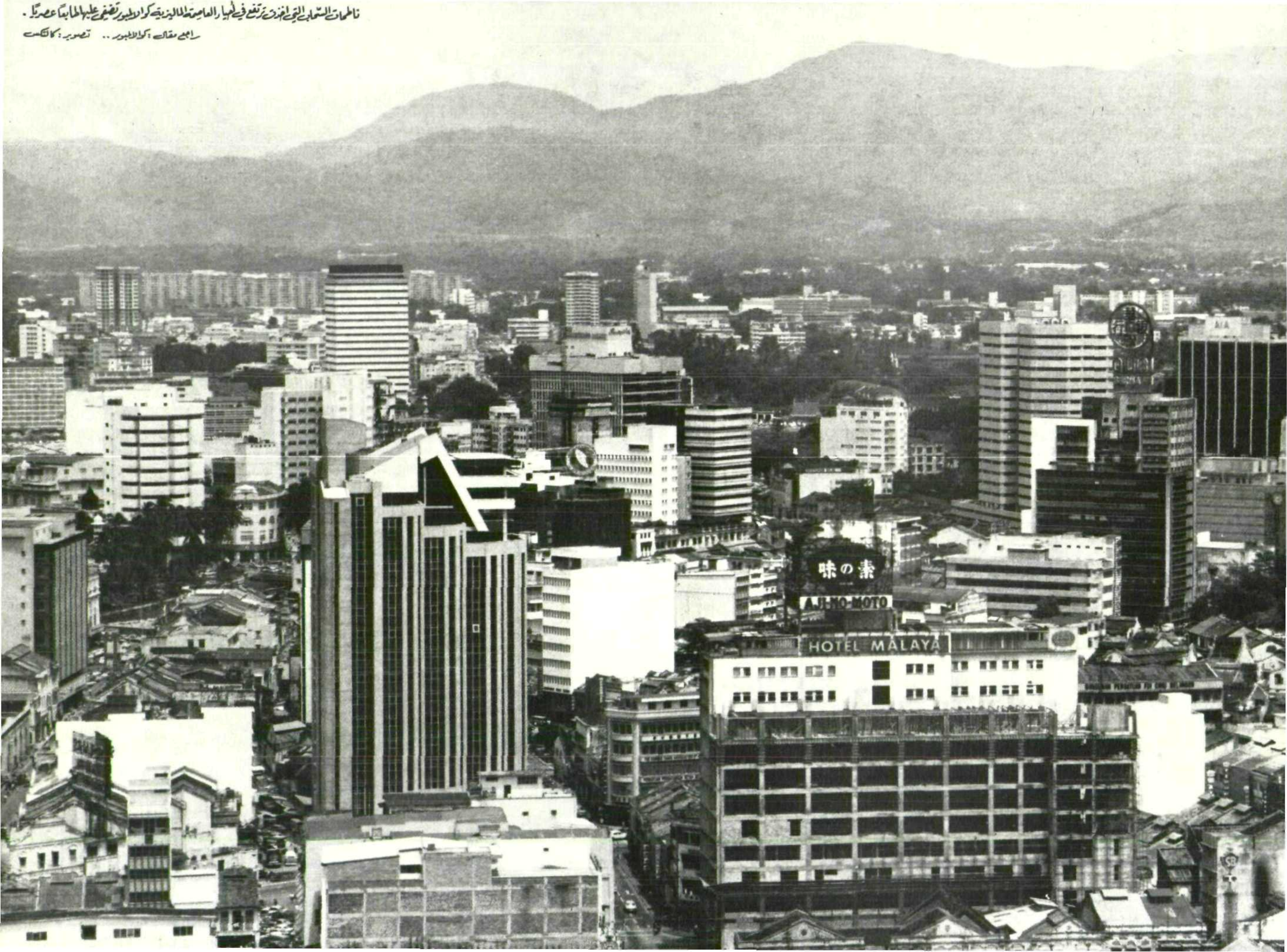

قافلة الزيت
صفر ١٣٩٧ - يناير/فبراير ١٩٧٧
المؤتمر العالمي للفقه الإسلامي



ناطحات السّحاب التي اخذت ترتفع في أنحاء العاصمة الماليزية كوالالمبور تضفي عليها طابعاً عصرياً .

راجع مقال : كوالالمبور .. تصوير : كالتكس

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الثاني المجلد الخامس والعشرون

تصدر شهريا عن شركة ارامكو لموظفيها - ادارة العلاقات العامة
"توزع مجاناً"
العنوان: صندوق البريد رقم ١٣٨٩ - الظهران. المملكة العربية السعودية

محتويات العدد

تصميم وطباعة شركة مطابع المطوع – الدمام
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. - DAMMAM

كلمة العدد

الاسلام شريعة الله الخالدة تناولت شؤون الحياة كلها: عقيدة، وعبادة، واجتماعاً، واقتصاداً، وسياسة، وحكماً. وقد حددت النصوص الشرعية أصول الأحكام في العبادات والمعاملات والعقوبات، كما استطاع الفقه الاسلامي بمعطياته التشريعية الثرة ان يقود المجتمع المسلم الراشد إلى معالم الهدى والرشاد، ويهيئ له أسباب الأمن والعدل والرخاء.

والمملكة العربية السعودية التي حباها الله نعمة التمسك بشرع الله والتي اتخذت من روح الاسلام وتعاليمه السامية نهجاً في الحكم وأساساً في التشريع، تدعو بين الحين والحين إلى عقد مؤتمرات وندوات علمية ترمي إلى الكشف عما تحمله الشريعة الاسلامية من قواعد تشريعية عادلة تحقق للانسانية الخير والأمن والاستقرار.

وانطلاقاً من هذه الأهداف، وتقديراً للدور الديني والتاريخي للمملكة في الذود عن حياض شريعة الله، تبنت جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض فكرة عقد مؤتمر عالمي حول «الفقه الإسلامي»، شارك فيه نخبة من كبار العلماء والفقهاء في العالم الاسلامي وعدد من الشخصيات الفكرية الغربية، يمثلون ستاً وعشرين دولة حيث طرحت بحوث وموضوعات تناولت القضايا الاسلامية المعاصرة في ضوء أحكام الشريعة الغراء.

وفي هذا العدد الذي بين يديك، المامة عن وقائع ذلك المؤتمر العالمي فضلاً عن استطلاعات وبحوث أخرى شيقة توخينا فيها الشمول والتنويع.

المحرر



صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز، ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء، يتصدر الجلسة الافتتاحية للمؤتمر العالمي للفقه الاسلامي الذي عقد تحت رعاية سموه في قاعة الملك فيصل للمؤتمرات بالرياض في غرة ذي القعدة ١٣٩٦هـ. ويبدو الى يسار سموه معالي الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض.

المؤتمر العالمي للفقه الاسلامي

بقلم: الدكتور علي عبد الحليم محمود

الفقه في اللغة: الفهم والعلم بالشيء وادراكه. «وكل علم بشيء فهو فقه» والفقه والفقيه كل عالم بالحلال والحرام.. وفي الاصطلاح: كما عرفه صاحب مفتاح السعادة: «الفقه علم باحث عن الاحكام الشرعية الفرعية العملية، من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية. والغرض منه هو تحصيل ملكة الاقتدار على الاعمال الشرعية. وقد عرفه ابن خلدون في مقدمته بأنه: «معرفة احكام الله تعالى في افعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة.»

وقد جرى عرف العلماء من لدن الأئمة الاربعة على تقسيم الفقه إلى قسمين رئيسيين هما: العبادات والمعاملات..

ففي مجال العبادات يوضح الفقه الاسلامي للانسان المسلم كل ما له صلة بعبادته لله سبحانه من صلاة وصيام وحج واعتكاف وزكاة ويرسم في هذا المجال صورة دقيقة واضحة لكل عبادة من العبادات.

وفي مجال المعاملات لا يدع الفقه الاسلامي تصرفاً من تصرفات المسلم مع أخيه المسلم او مع غير المسلمين الا ويحد له حدوده ويبين له أبعاده، كالبيع والاجارة والصرف والسلم والشفعة والرهن والوكالة والكفالة والمضاربة والمزارعة والمساقاة، ويهتم في هذا المجال بتوضيح الدقائق والتفاصيل للحدود التي فرضها الله عقوبات على بعض الجرائم كالزنى وشرب الخمر والسرقة والحرابة «قطع الطريق» ويوضح الأبعاد المختلفة للقضاء وأدب التقاضي والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعلى الجملة فان الفقه الاسلامي قد تكفل برسم صورة تفصيلية لحياة المجتمع الانساني في كافة مستوياتها بين العبد وربه وبين الانسان وأخيه الانسان وبين الأمة الاسلامية وغيرها من الأمم.

والفقه الاسلامي قادر على ان يمد البشرية كلها في مختلف اطوارها، ومع هذه المتغيرات



لقطات من جلسات المؤتمر الذي حضره عدد من أصحاب السمو الملكي الأمراء والمعالي الوزراء ونخبة من فقهاء ورجال الفكر في العالم الاسلامي وعدد من مديري الجامعات وعمداء كليات الشريعة الاسلامية .

الاجتماعية والسياسية المستمرة ، بحكم صائب ونافع للناس في كل مسألة تعن ، وكل مشكلة تطرأ ، وكل عقبة تقوم في وجه التقدم الانساني والسعي بالانسان نحو ما يصلحه ويحقق له سعادة الدنيا والآخرة .

واذا كان رجال القانون اليوم قد فرّعوا القانون إلى فروع عديدة كالقانون العام بفرعيه الرئيسيين القانون الدولي او الخارجي ، والقانون الداخلي ، وفرّعوا القانون الداخلي الى قانون دستوري وقانون اداري وقانون مالي وقانون جنائي « عقوبات » وقانون تحقيق الجنايات واجراءات جنائية ، اذا كان رجال القانون قد فرعوا القانون إلى تلك الفروع العديدة ، فان جميع تلك الفروع وما يحتمل ان تتفرع عنه القوانين المختلفة يعد من مسائل الفقه الاسلامي وقضاياه الرئيسية .

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية والمؤتمر العالمي للفقه الإسلامي

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية معنية ، كغيرها من الجامعات الاسلامية في المملكة ، بالبحوث الفقهية والقانونية المقارنة ، ومعنية كذلك بالدعوة الى الاسلام وبضرورة الاخذ بما في كتاب الله وسنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، لتطبيقه على الناس حتى يعيشوا في ظلال الحكم بما انزل الله . فانطلاقاً من مكانة المملكة العربية السعودية التي ارست دعائم حكمها على الاسلام ، عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، وتقديراً للرسالة التي تحملها المملكة ، وما اخذته على عاتقها من حمل امانة الدعوة الى الاسلام ، والحفاظ على مقوماته الحضارية ، والعمل بشريعته ، وأداء لأهداف الجامعة التي ترتكز على اثراء الفقه الاسلامي وتنمية بحوثه ، وتقديم الحلول الناجعة لمشكلات العصر ،

وتلبية للدواعي الملحة التي يشعر بها المسلمون ازاء الصراع العقدي والمذهبي في أنحاء العالم لعرض الاسلام عرضاً سليماً ، والكشف عما تحمله شريعته من قواعد تشريعية عادلة ، انطلاقاً من كل هذه الاعتبارات رأت الجامعة ضرورة عقد مؤتمر للفقه الاسلامي ، يدعى اليه علماء الأمة الاسلامية ورجال الفكر فيها للبحث وتداول الرأي في قضايا الاسلام وقضايا امته . وقد تم انعقاد المؤتمر في قاعة الملك فيصل للمؤتمرات بالرياض تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز ، ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ، وذلك في الفترة من غرة ذي القعدة ١٣٩٦هـ الى الثامن منه . وقد شارك في المؤتمر نخبة من كبار العلماء والفقهاء والمفكرين في العالم الاسلامي والهيئات الاسلامية في أنحاء المعمورة ، واشترك معهم نخبة من علماء المملكة وأساتذة جامعاتها .

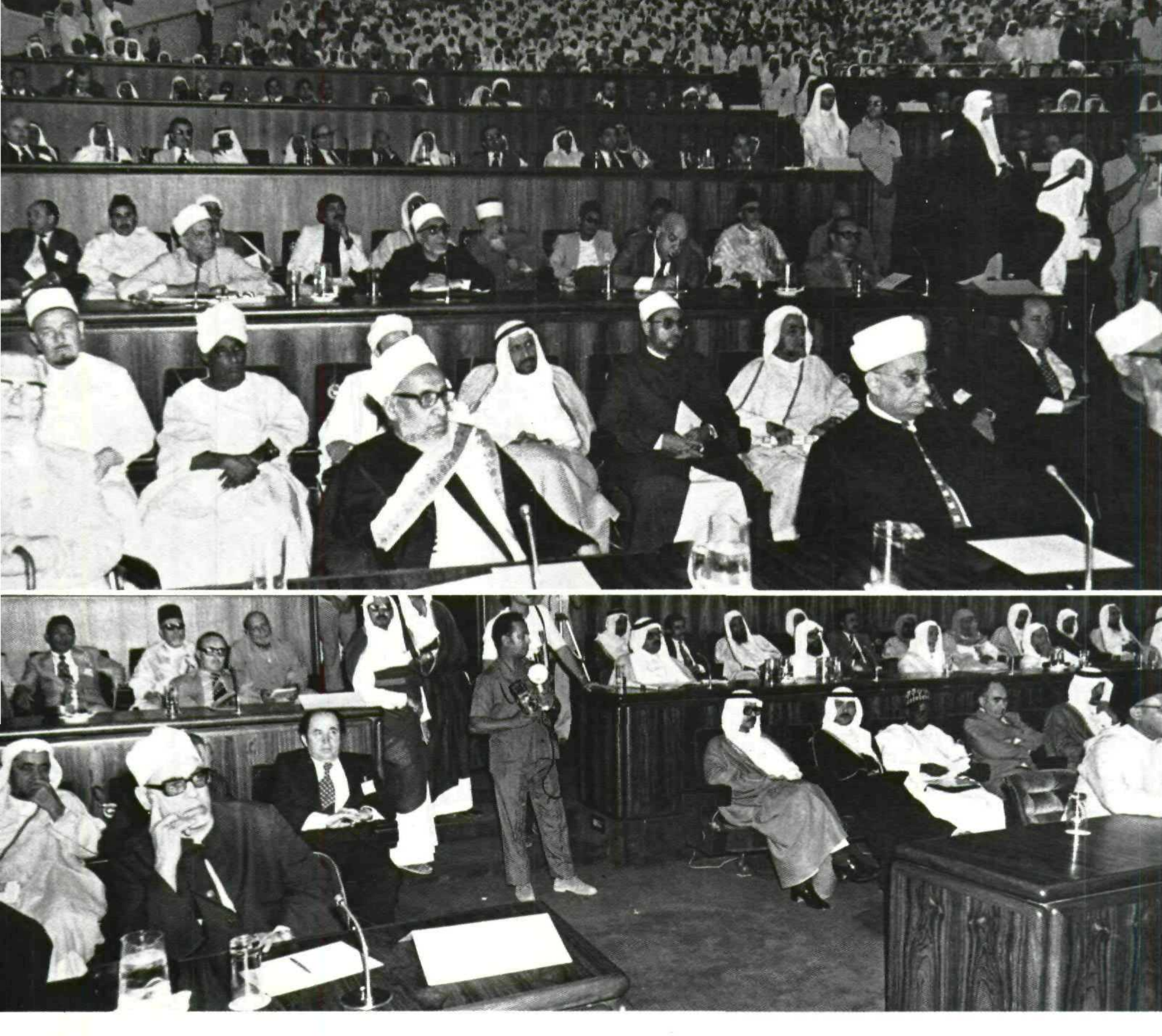
الأمانة العامة للمؤتمر ولجانها الفرعية ومنجزاتها

ان العمل المثمر لا بد وأن تسبقه دراسات متخصصه واعداد شامل لكل جوانبه . لذا فقد شكلت أمانة عامة لمؤتمر الفقه الاسلامي قبل انعقاد المؤتمر بسنة كاملة .

وقد استهلت الأمانة العامة عملها باختيار الموضوعات التي يجب ان يتناولها اعضاء المؤتمر بالبحث والدراسة ليخرجوا منها بالتوصيات الملائمة . وقد شكلت اربع لجان متخصصة لدراسة ومناقشة البحوث والموضوعات التي اختيرت للمؤتمر .

وكان من بين الموضوعات التي طرحت على بساط البحث في المؤتمر :

- **وجوب تطبيق الشريعة الاسلامية في كل زمان ومكان .**



• الشبهات التي تثار حول الشريعة في العصر الحديث .
• الاجتهاد في الشريعة الاسلامية .

ونظرت الامانة العامة للمؤتمر من حولها إلى العالم الاسلامي وركزت على القضاء والتقاضي بين المسلمين ، خصوصاً بعد أن أصبح القضاء في معظم بلدان العالم الاسلامي ، قد اخذ بالقوانين الوضعية ، الأمر الذي ترتب عليه ضياع كثير من مصالح المسلمين في انظمة القضاء الغربية المعاصرة ، فضلاً عن عجز ذلك القضاء – وقد امتنع عن تطبيق الحدود الشرعية على الناس – عن ان يحقق للناس أمناً أو استقراراً ، من هنا كان لا بد للامانة العامة للمؤتمر ان تطرح على الأعضاء موضوعين حيويين في هذا المجال هما :

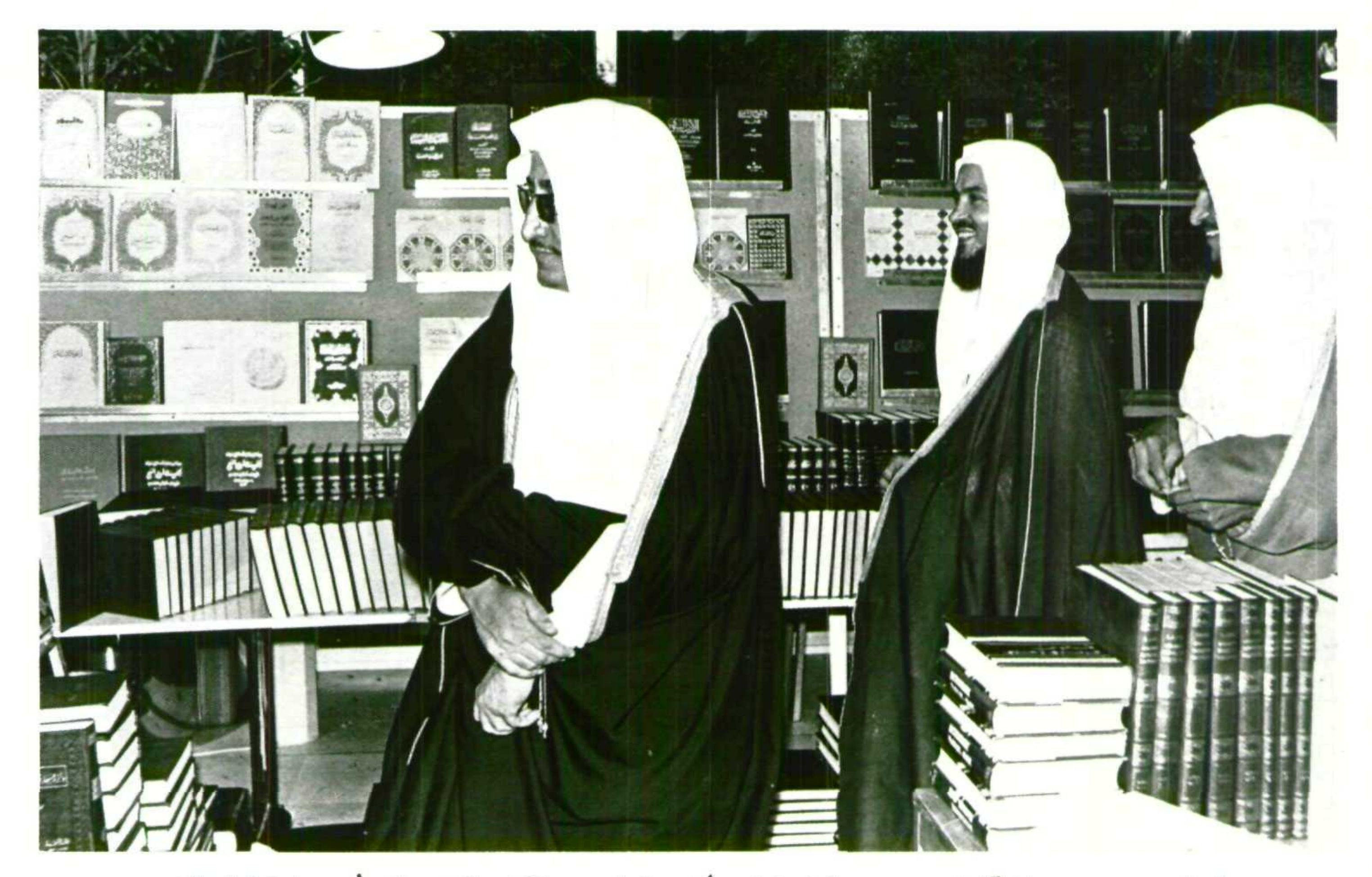
• نظام القضاء في الاسلام .
• وأثر تطبيق الحدود الشرعية في تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع .

وعلى صعيد سيادة المذاهب الاقتصادية المعاصرة وشيوع تلك المقولة التي تنادي بأن الاقتصاد عصب الحياة ، ومن أجل هذا الصراع الذي يسود العالم كله بين المذاهب الاقتصادية التي تجر وراءها المذاهب السياسية في صراع من نوع آخر ، ومن أجل ذلك كله ، كان لا بد أن يطرح المؤتمر على بساط البحث موضوعين مهمين في هذا المجال وهما :

• النظام الاقتصادي الاسلامي في المجتمع .
• والمصارف الاسلامية بين النظرية والتطبيق .

ولأن المجتمع المعاصر مجتمع توجهه الى حد كبير وسائل الاعلام التي تستطيع أن تدخل على الانسان في بيته وأن تقتحم عليه حواسه ، كان لا بد للمؤتمر من وقفة ازاء الاعلام في العالم الاسلامي ، وأثره الكبير في نشر القيم الاسلامية ، وحمايتها من خلال طرحه موضوع : **« الاعلام وأثره في نشر القيم الاسلامية وحمايتها »** .

ولما كانت الأجيال المسلمة الآن تربى وتعلم على أسس وفلسفات تربوية نابعة من



معالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ ، وزير التعليم العالي ، أثناء تجواله في معرض الكتاب الاسلامي الذي أقيم بمناسبة افتتاح المؤتمر .

فلسفات غير اسلامية ، ولما للتربية من أثر ملحوظ في ارشاد الفرد والمجتمع وتنمية القيم والمباديء والسير بها نحو ما يصلح المجتمع ولأجل ألا تتعارض المدرسة مع وسائل الاعلام وأدواته ، ولكي يحدث التجاوب والانسجام بين كافة الأجهزة والمؤسسات العاملة في مجال التربية والتوجيه ، من أجل هذا كان لا بد من طرح موضوع : « **التربية الاسلامية وأثرها في المجتمع** » .

ولما كان العالم الاسلامي يعاني الآن من تيارات فكرية معادية تهدف الى تشويه الفكر الاسلامي وتراث العقول الاسلامية ونتاجها عبر قرون عديدة من الزمان ، كان لا بد أن يطرح المؤتمر موضوع : « **الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام** » .

هذا وقد أسهمت أجهزة الاعلام في المملكة في تغطية وقائع أعمال المؤتمر الذي توافد عليه عدد كبير من محرري الصحف في العالمين العربي والاسلامي .

ضيوف المؤتمر وأعضاؤه

وفد على المؤتمر للمشاركة فيه ببحوث أعدت من قبل ، عدد غير قليل من فقهاء العالم الاسلامي وعلمائه ورجال الفكر فيه . وقد تمثل في أعضاء المؤتمر ست وعشرون دولة مثل بعضها بعضو وبعضها بأكثر من عضو . وهذه الدول هي : المملكة العربية السعودية ـ المضيفة ، والمملكة الأردنية الهاشمية ، وأفغانستان ، وأندونيسيا ، ودولة الامارات العربية المتحدة ، وباكستان ، وبنجلاديش ، وتايلاند ، وتركيا ، وتونس ، والجزائر ، والسودان ، وسوريا ، والعراق ، والفلبين ، وقطر ، والكويت ، وليبيا ، ومصر ، والمغرب ، ونيجيريا ، والهند ، واليمن ، وفرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والمملكة المتحدة .

وكان من بين أعضاء المؤتمر عدد من الوزراء ومديري الجامعات ومعظم عمداء كليات الشريعة في العالم الاسلامي ، وعدد كبير من أساتذة الجامعات وكبار المفكرين الاسلاميين ومحرري الصحف والملحقين الثقافيين للمملكة العربية السعودية في بلدان العالم الاسلامي .

وقد قامت الأمانة العامة بنشر ما يقرب من أربعين بحثاً من البحوث التي قدمت اليها ووزعت على الأعضاء .

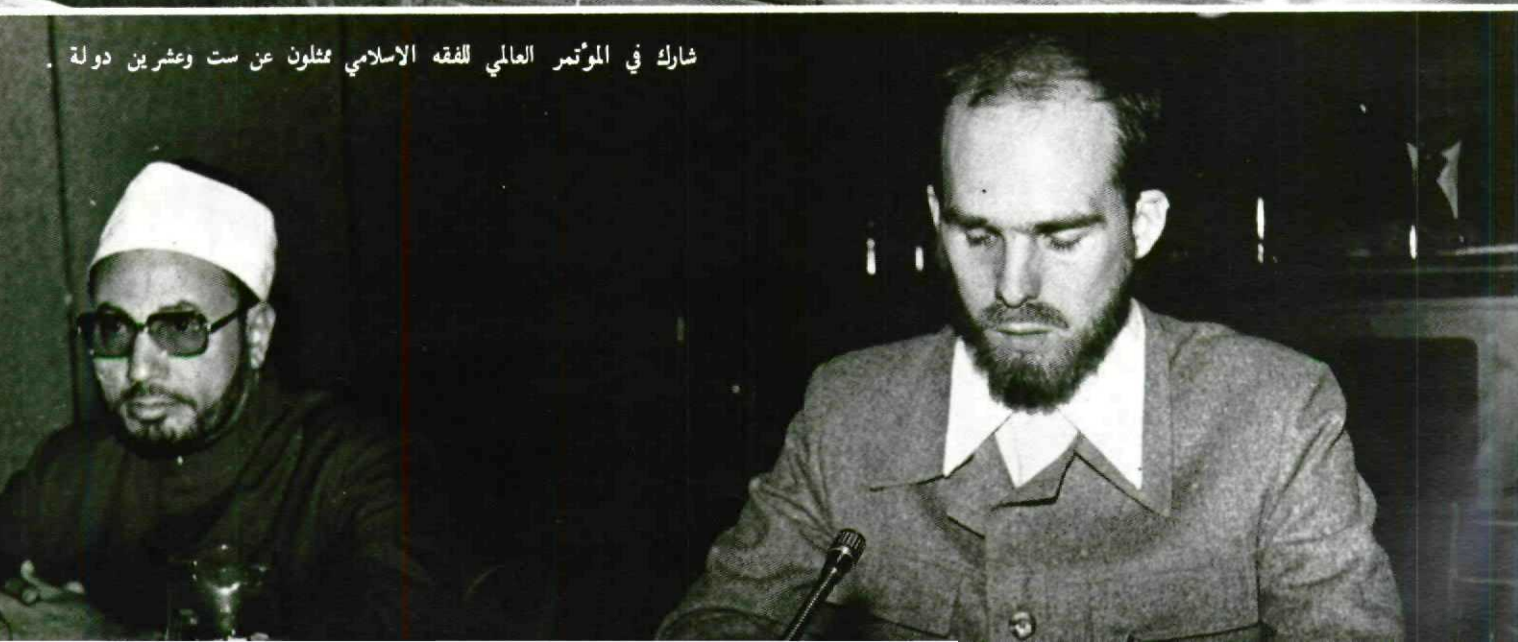
لجان المؤتمر وتنظيماته الداخلية

في اليوم الثاني لافتتاح المؤتمر ، عقد اجتماع عام للأعضاء تم فيه اختيار رئيس المؤتمر ونائبه ومقرره .

ثم وزع العمل على لجان أربع استقلت كل لجنة منها بقاعة من قاعات البحث المعدة لذلك الغرض ، وتولت كل لجنة من هذه اللجان مناقشة عدد من موضوعات البحث والدراسة التي طرحت على المؤتمر .

واستمرت أعمال المؤتمر على النحو التالي :

في الصباح جلسات عمل : استماع ومناقشة في كل لجنة . .



شارك في المؤتمر العالمي للفقه الاسلامي ممثلون عن ست وعشرين دولة .



مجموعة اخرى من الشخصيات الاسلامية ورجال الفقه الاسلامي الذين اشتركوا في اعمال المؤتمر.

وفي المساء محاضرات عامة وندوات يعقدها الأعضاء . .

واستمر المؤتمر هكذا في جد وعمل متواصلين ، حتى أنهى أعماله وأصدر توصياته .

معرض الكتاب الاسلامي في المؤتمر

استطاعت عمادة شئون المكتبات بالجامعة أن تدعو أكثر من عشرين ناشراً من مختلف البلاد العربية والاسلامية ومن بعض الدول الأوروبية ، ليعرضوا في المؤتمر ما لديهم من كتب اسلامية تتصل بالفقه الاسلامي وبغيره من كتب التراث وكتب الثقافة العامة . وقد تفضل بافتتاح هذا المعرض معالي وزير التعليم العالي والرئيس الأعلى للجامعات الشيخ حسن ابن عبد الله آل الشيخ عقب حفل الافتتاح ، فجاء هذا المعرض الخاص بالكتاب الاسلامي مكملاً للمؤتمر من بعض جوانبه الهامة . وقد استمر المعرض طوال فترة انعقاد المؤتمر .

توصيات المؤتمر

انطلاقاً من أهمية الموضوعات التي طرحت على بساط البحث والتي تتصل بتطبيق الشريعة الاسلامية في جوانب الحياة كلها ، توصل المؤتمر الى عدة توصيات كان من بينها :

أولاً : **فيما يتصل بتطبيق الشريعة الاسلامية ،** يوصي المؤتمر بما يلي :

- العمل الجاد ومن الآن على تطبيق الشريعة الاسلامية والامتناع عن اصدار قوانين جديدة في البلاد الاسلامية تخالف أحكام هذه الشريعة.
- العمل من الآن على تطبيق العقوبات الاسلامية في الحدود وغيرها لايجاد مجتمع اسلامي سليم بعيد عن الانحراف الخلقي ، والانهيار الاجتماعي .
- اعداد القاضي اعداداً كافياً يمكنه من تطبيق الشريعة الاسلامية على وجهها الصحيح ، بانشاء ودعم الكليات والمعاهد المتخصصة لتحقيق ذلك . وأن تأخذ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية زمام المبادرة في ذلك لتكون قدوة للجامعات الاسلامية الأخرى .

ثانياً : **فيما يتصل بمجمع الفقه الاسلامي :**

- يرى المؤتمر أنه قد آن الأوان لأن يبرز « مجمع الفقه الاسلامي » الى الوجود حتى يتم بين جنباته احياء الاجتهاد الجماعي ، لبحث تحديات العصر ، وما يجد من أحداث ، والوصول الى رأي أمثل في حلها وطرق علاجها .
- يرى المؤتمر أن جامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية قد توافرت لها أسباب تبني هذا المجمع ، لقيام أهدافها على دراسة الشريعة الاسلامية دراسة مستفيضة ، في مناخ اسلامي بالمملكة العربية السعودية التي تطبق شريعة الاسلام في جوانب الحياة كلها ، وتعطي للعالم صورة أتم لما تحققه هذه الشريعة من أمن نفسي ، واستقرار جماعي وعدل شامل ، ورخاء عميم .

ثالثاً : **فيما يتصل بالاقتصاد الاسلامي :**

- العمل على ابراز جوانب هذا النظام الذي يؤدي تطبيقه الى تحقيق أعظم المصالح للفرد والجماعة واشاعته في الأوساط الاسلامية .
- العمل على الغاء المعاملات الربوية ومنها الفوائد المحددة سلفاً لأنها رباً صريح وهي ضارة بالنشاط الاقتصادي حيث لا يتم التوازن الاقتصادي الا بالغائها .
- التوسع في انشاء مؤسسات مصرفية غير ربوية ودعم القائم منها ، والعمل على تشجيع بقية المؤسسات المصرفية العاملة في البلاد الاسلامية على تطوير نظمها بما يتوافق مع أحكام الشريعة الاسلامية .
- ان تنشيء جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية مركزاً للبحوث الاسلامية الاقتصادية يبحث في النظام الاقتصادي الاسلامي ووسائل تطبيقه .

رابعاً : **فيما يتصل بالاعلام والتربية والغزو الفكري .**

- العناية بدراسة العلوم الدينية وربطها بواقع الحياة ، والاهتمام بدراسة الحضارة الاسلامية في جميع مراحل التعليم ، وتسليح الشباب المسلم بالثقافة الاسلامية التي تحصنه من الغزو الفكري .
- الحيلولة دون تسلل ذوي الأغراض المعادية للاسلام الى مواقع العمل الاسلامي ، والحرص على توسيد الأمر الى أهله في كل المجالات ودعم المؤسسات والمنظمات الاسلامية لتقوم برسالتها .
- تكوين جهاز دائم من المتخصصين لرصد حركات الغزو الفكري وتنبيه الأمة الاسلامية الى خطورته ، واقتراح وسائل مواجهته ، والتعاون مع جميع الهيئات والمنظمات والجامعات الاسلامية لاحباط مخططاته .
- وضع موسوعة اسلامية باللغة العربية تستهدف عرض قضايا العلم من وجهة نظر الاسلام الصحيحة ، وتصحيح ما زيف من تاريخ الاسلام وأفكاره والعمل على ترجمتها الى اللغات الأخرى .
- انشاء مؤسسة صحفية اسلامية على مستوى العالم الاسلامي تصدر صحفاً تعرض قضايا العالم من وجهة نظر الاسلام ، ومجلات متخصصة للطفل وللشباب ، وللمرأة ، وللعمال ، تجمع بين المضمون الاسلامي الصحيح والأسلوب الصحفي المتطور ، كما تتولى ترجمة المهم من الكتب الى لغات الشعوب الاسلامية لتسهم في تحقيق الوحدة الفكرية بين المسلمين .
- تنقية برامج الاذاعة والتليفزيون من الاتجاهات الخارجة على القيم الاسلامية ، والدعوة الى اقامة تنسيق بينها وبين المؤسسات الاسلامية ، وتدعيم الاذاعات الاسلامية وتقوية ارسالها ليصل الى أنحاء العالم .
- تأييد فتح مكاتب لوكالة الأنباء الاسلامية في عواصم العالم ، وتجنيد الكفاءات الاعلامية الاسلامية لها والتوسع في خدماتها .
- أن تنشيء جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية وغيرها من الجامعات مراكز للبحث التربوي ويجند الرجال الصالحون للعمل فيها .



عدد من أعضاء الوفود الاسلامية التي شاركت في أعمال المؤتمر العالمي للفقه الاسلامي .



لقطات من اجتماعات اللجان المتفرعة عن المؤتمر والمتخصصة بدراسة ومناقشة البحوث والموضوعات المقدمة للمؤتمر. وقد تولت كل لجنة من هذه اللجان مناقشة عدد من موضوعات البحث والدراسة المطروحة .

تصوير : شركة التصوير الوطنية – الخبر

خامساً : **توصيات عامة :**

- أن تكون للمؤتمر أمانة عامة دائمة ، تتابع تنفيذ قراراته وتوصياته والاتصال الدائم بأعضائه ، مقرها جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .
- أن يكون انعقاد مؤتمر الفقه الاسلامي دورياً كل ثلاث سنوات .
- أن تشكل لجنة لاختيار الجيد من البحوث التي قدمت الى المؤتمر لتقوم جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بطبعها وتوزيعها على الملوك والرؤساء والعلماء والفقهاء والمفكرين والجامعات والمؤسسات في أنحاء العالم الاسلامي .
- أن يؤلف وفد يحمل توصيات هذا المؤتمر لزيارة البلاد الاسلامية وابلاغ المسؤولين فيها وذوي العلاقة بمضمونها والتوصية بتنفيذها .
- أن يلتزم المشتركون في المؤتمر بالعمل على نشر هذه التوصيات والدفاع عنها لدى الأوساط المسؤولة في بلدانهم وأمام المؤسسات والهيئات العلمية والثقافية والتربوية والاقتصادية التي تعنيها الأمور الواردة في مجموع هذه التوصيات .

وهكذا انتهت أعمال أول مؤتمر تعقده جامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية ، بهذه الصورة التي تعبر عنها توصياته ●

د . علي عبد الحليم محمود
الرياض – جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية



الدكتور زكي المحاسني
شاعر الملحمة العربيّة

صمت الدكتور زكي المحاسني ...

صمت ، صمت صوفيّ مستغرق متأمل ظل العمر يدق الباب دق واله متشبث غير وان ولا يائس . ولم تكن صوفية المحاسني ، طيب الله نزله ، صوفية ضيقة الحدود نماها ايمان عجوزي غير واع ... بل هي على النقيض من ذلك ... صوفية تعج بالوعي ، وتكرس امجادنا السالفة ، دينيّها ، وفكريّها، وفنيّها ، نهجاً ملحمياً يضع المحاسني بين شعراء القمة ممن اسرهم ذلك الشمول الذي ملأ أسفار تاريخنا منذ فجر الاسلام ، بل وقبيل ذلك ببضع مئات من السنين .

ولو وضعنا كل مآثر المحاسني جانباً واستعرضنا ما نفح به « قافلة الزيت » من بديع قصيده خلال عقد ونصف من الزمن لوجدنا الدليل على ان المحاسني ، وان صمت فانما هو لا يزال ملء الدنيا غناء ، وحداء ، وصفاء صوت ، وخلوص شاعرية .

عرفنا المحاسني أول ما عرفناه ، وكان علما آنذاك ، في أوائل عام ١٩٥٧ من خلال قصيدة بعث بها للقافلة بعنوان « الصحراء » مزج فيها بأسلوب واع بين معالم الصحارى المترامية برمالها السافية ورياحها اللافحة وشمسها المتأججة ... وصحارى النفوس بخوائها وحيرتها واطباق ظلامها :

« النفس بيداء الرجاء
ما من دليل في الدروب
ظمأى ، وما يروي الغناء
ونظل نرتقب النصيب »

ولعل ذلك يلقي ضوءاً على تكوين المحاسني الملحمي : حيرة موحشة ، ولا بصيص ولا دليل ، وغناء يجيش في الصدر ... ولكنه غناء قاصر لا يروي ظمأ ، وتطلع الى الصحراء ، حان آمل ولكن دون تشبث .

وبدت تلك الحيرة في نفحة تالية وهي قصيدته « النجوم » بقوله :

« حار طرفي والنجم يعرض فنه
يتلالى على مطاف الدجنة »

بدت ملحة تكاد تحيط بكل ما حوله :

« كان نهر الوجود ظمآن حتى
شرب الليل فتنة بعد فتنة
يا أحباي ، ان نجمي مطل
شارد في الفضاء بغير أعنّة
أين نجمي دوخت طرفي عليه
في صحارى النجوم ضيعت حسنه
ان روحي مثل الشهاب فنوحي
عندما تبصرين شهباً مرنّة »

ومع كونها حيرة سادرة إلا أنها كانت مشوبة بالبحث عن «نجم» الشاعر ، عن دليله ، عن خلاص من حيرته ، وكان بحث المحاسني بحثاً واعياً فرحاً قوياً ، فهو لم يكن مكابراً حين ختم قصيدته تلك بقوله :

« زهري في المساء لاح وفي الصبح
فيا ليتني اطاول غصنه »

بل صادقاً مشدوهاً بفرحة الحائر إذ يهتدي أو يلوح نجمه فيكاد يطاوله .

من هنا فاننا نحدس أن الشاعر قد بدا وكأنه يمسك طرف الخيط ، إذ خطا الخطوة الأولى (الحيرة وصحراء النفي) وأتبعها بالثانية وهي صيحة الفرح وانشداه النفس باللقيا (وجدتها) ، وكأني بذلك من علائم الاستعداد للمخاض الأكبر ، مخاض « الملحمة العربية الكبرى » .

* * *

كان الدكتور زكي المحاسني – كما ورد في مقدمة الملحمة العربية – أول من قدم رسالة للحصول على درجة الدكتوراة في العصر الحديث بموضوع « شعر الحرب في أدب العرب » ، وقد ضمن رسالته تلك فصلاً عن شعر الملاحم وأهميته في آداب الأمم ، قديمها وحديثها ، الشرق والغرب .

وورد في مقدمته للملحمة المذكورة قوله : « وقد تبين لي أن أمتنا العربية ما تزال محرومة من ملحمتها الكبرى التي تجمع تراثها في مجد الحرب والفكر وحياة الشعر العربي الذي لا يفنى ، وعرفت أن في هذا الشعر قصائد اذا ضم بعضها الى بعض جاءت أناشيد في ملحمة العروبة المنشودة . وان شعر أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة وحده ، اذا أضيف الى ما قال أبو تمام والبحتري في أبي سعيد الثغري بحروبهم مع البيزنطيين كان ذلك قطعة من الملحمة العربية .

غير ان وضع الملحمة العربية الكاملة يضيف مجد العروبة الى أمجاد الأمم ذوات الملاحم . . » الى أن يقول : « فما كان أجدرني أن أعمل الملحمة العربية المرصودة ، وهأنذا أبدأ اليوم كتابة مقدمتها ، وأسأل الله أن يعين في اتمام أناشيدها ، فتكون دعوتي اليها انجازاً ، وأعمالي من أجلها حفاظاً ، وهو الموفق ونعم النصير » .

واذا وقفنا قليلاً عند هذه المقدمة النثرية لمقدمة الملحمة الشعرية تتضح لنا النقاط التالية :

* يقترن شعر الملاحم ، في ذهن المحاسني ، وحروب الأمم الى حد التلاحم ، ومع نصه الصريح على أن الملحمة العربية المنشودة لابد وان « تجمع تراث الأمة العربية في مجد الحرب والفكر وحياة الشعر » إلا أنه يعود فيكرس أمجاد الحرب كعامل أساسي في شعر الملحمة وذلك عندما يشير الى أن شعر أبي الطيب في سيف الدولة وشعر أبي تمام والبحتري في الثغري انما يشكلان قطعة من الملحمة العربية . . . مغفلاً الى حد ما أن الملحمة انما تكون نتاج شاعر واحد أضفى الى الحرب التي تدور ملحمته حولها فيضاً من فلسفته الذاتية وفلسفة جيله وأمته كما تتضح في معتقدات عصره بل وأساطيره وخرافاته .

* لم تفتقر خزانة الأدب العربي الى الملاحم كما تخيل شاعرنا ، فهو نفسه قد ألمح الى النزعة الملحمية في شعر المتنبي مثلاً ، ولربما فاته أن تلك النزعة واضحة المعالم في شعر امريء القيس وسيرته ، وأن شعر عنترة ما هو إلا ملحمة جيدة متكاملة .

* لا نعتقد أن المحاسني أراد أن يجمع ما يشبه ديوان « الحماسة » ويضيف اليه بضعة أناشيد من نظمه حتى يكمل « الملحمة العربية المنشودة » لأنه لو أراد ذلك لما بدأ – تاريخياً – من حيث بدأ ، ولكان خرج صفر اليدين ، لأننا ندرك عجافة العصر الذي عاشه المحاسني ، وعشناه معه . اننا لم نخض من الحروب ما يثير شعراً ملحمياً كما حصل في عصر هوميروس . . . فمن أين نأتي بالملاحم ؟! .

* ذلك يدفعنا الى القول إن المحاسني انما أراد أن يعيد كتابة أمجادنا السالفة لا المعاصرة بأسلوب ملحمي . لقد شدهته أمجادنا الى درجة انه انبرى لها بالشعر مؤرخاً ومقيماً حيناً ، وعاشقاً متصوفاً حيناً آخر ، ومخلصاً للتاريخ والشعر والحقيقة كل الأحيان . . فهل تراه أفلح في تحقيق هدفه والى أي مدى ؟! .

* * *

برؤيا شعرية كلاسيكية ، وعند غير المحاسني تنوء الكلاسيكية بالرؤى وتقصر دونها ، وبأسلوب جزل بارع بدأ شاعرنا ملحمته بتصوير يدعمه الرمز لأيام العرب قبل الاسلام ومظاهر جودهم وكرمهم ، تكريساً لايمانه بمطلق أخلاقية العرب وأصالة أمجادهم ، عن نارهم التي تطلق العبد حراً ان أشعلها وجلبت ضيفاً يقول :

هي نار للمكرمات على الليل تعدّ المعروف للقصّاد
خلد الجود لفحها ونداها وارتمى عندها اللهيف بزاد

ولديها قبائل ترقب الضيف وتفدي قراه بالأكباد ويطاوعه الرمز ، إذ يسرجه أسلوباً عذباً ، ايما مطاوعة عندما يقول :

وملا مسمعي على النأي أهوال عزيف الجن في ترداد
هن أطياف « عبقر » تبعتني في سراها بالفاتن المياد
نسجت لي درباً يرف على الجو فهف الجناح عذب القياد

وتسلسلت رؤى الشاعر ، ملحمية سلسة ، متصلة اتصال شريط سينمائي ، هذه قريش وعبد شمس ودار الندوة والأوس والخزرج ، وذلك النابغة يعمر عكاظاً بشعره ، وزهير ودرره ، وتلكم هي مازن وبنو عيلان ، وأشهر نادبات العرب تملأ الجزيرة دموعها ورنة

شعرها الحزين إذ تبكي صخراً . . و . . . مروراً بداحس والغبراء والبسوس ، وارخاص الأرواح لمجرد انجاد الحليف ، أو للدفاع عن حرية مهددة يستنتج شاعرنا أن الانسان العربي انما هو :

عـربي كفتـه وصفا حروف
سلسلـة في الخلـد مـن عهد عاد
فمـلا العـز في الجزيرة يحميها
عـلى كـبرة لـيـوم المعـاد
كتـب الملحمـات فـي الدهـ
ـر والأقـدار مـدّت لـه بمداد

ما أراده المحاسني في أول أناشيد ملحمته وهو المقدمة الشعرية لها ، أن يثبت أن الملحمة العربية ،على عكس ملحمات الأمم الأخرى ، انما هي ملحمة حقيقية تاريخية بطلها الانسان العربي الذي عاش من عهد عاد والذي ما يزال يعيش حتى أيامنا هذه، كريماً ، حراً ، أبياً ، أسهم في صنع حضارة الانسان بفكره وفنه على حد سواء .

وتتابعت أناشيد الملحمة ، فكان يوم ذى قار نشيدها الأول ، وصفاً تصويرياً مفصلاً لتلك المعركة بين الفرس والعرب ، فكان بحق مقطعاً مكتمل السمات الملحمية ، دقيقاً من الناحية التاريخية دون تقعر ولا اسفاف ، ثم تبعه نشيد « حاتم الطائي » ليصور ما يعادل البطل الاسطوري في ملاحم الأمم الأخرى كحقيقة ملأت الدنيا العربية آنذاك وما زالت حتى غدا حاتم مثلاً في الكرم وقول المحاسني :

« خبريـني اسطـورة البـذل قد
كنت لعمـري حقيقـة الصحراء »

وجمعه بين « اسطورة البذل » و « حقيقة الصحراء » بهذا البيت مصداق لرأينا ذاك .

ولا يقتصر النشيد على جود حاتم وكرمه بل يأتي على بطولاته في الوغى والنزال وعلى خلقه النبيل ولعل قفله النشيد بقوله :

« ســادة فـي الـوغـ
ـى عبيـداً لضيـف »

لا يكاد ينطبق إلا على حاتم كأحد سادة العرب وأجود كرمائهم .

وقد يتساءل البعض هل كان يجدر بالمحاسني أن يفرد لحاتم نشيداً بكامله في ملحمته العربية ؟ وكأن تاريخ العرب آنذاك كان يأبه بغير الكرم والنزال والغزو ويحفل به ثم ان المحاسني عشق عروبته ، جاهليتها واسلامها ، وازدهى بانتصاراتها وأمجادها ، وشُده بأخبارها وأشعارها ولذلك كان لحاتم عنده تلك المكانة .

وفي نشيد نجم أحمد يبرع المحاسني بحسن الأداء من حيث مناسبته الموقف ، فهو كالدنيا التي من حول آمنة مبتهج لمولد أحمد ،عليه الصلاة والسلام ، وهو كأصحاب أحمد مشفق عليه وعلى الدين الوليد من عنت الكفر والكافرين ، وهو منتش بانتصارات الاسلام وكأنه أحد المجاهدين في بكارى غزوات المسلمين ، يقول :

« لـكأني أسمع الجيش عـلى بـا
ب قسطنطينة رهــن الـدخول »

ثم نراه بعد ذلك يفرد لبدر ، كبرى معارك الرسول ، نشيداً من عيون الشعر معنى ومبنى وتاريخاً للمعركة الخالدة .

ثم ما يفتأ المحاسني يستشرف تاريخ الاسلام الحافل ليستوحي أناشيده الواحد تلو الآخر ، فهذا النشيد السادس مفرد بكامله لعمر بن الخطاب الخليفة العادل منذ أعلن اسلامه فنصر الله الدين به يتبعه النشيد السابع يروي سيرة الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وبطولاته ومآثره ومكارم أخلاقه .

ومع أن نهج المحاسني كان قد اتضح إذ بدا وكأنه يستشرف تاريخنا كما أسلفنا مستلهماً من شخصياته وأيامه مواضيع أناشيده إلا أنه بدأ بين الحين والحين ينفحنا بقصائد كان يصفها بأنها « على هامش الملحمة العربية » ومعظم هذه القصائد كان ينضوي تحت لواء « شعر المناسبات » كقصيدة ميلاد الرسول ، وقصيدة الحج ، وقصيدة جبال مكة ، وغيرها . . . إلا أن هذه القصائد لم تحل بينه وبين متابعة مادة الملحمة الأساسية ، فكان يوم اليرموك نشيداً من أفضل مقاطع ملحمته ، ولعل مرد ذلك الى شهرة هذه المعركة كإحدى معارك الاسلام الحاسمة ضد الرومان .

وقد اتبع يوم اليرموك ببضع قصائد كانت كلها تدور حول أمجاد العرب والمسلمين ولكنها لا تعتبر من صلب الملحمة العربية لأن معظمها كان قصائد مناسبات .

بيد أن شاعرنا كان أدرى الناس بحاله إذ يخيل لي أنه كان مع الصمت في سباق . . . ويقيني انه صمت بعد أن اقتنع بأنه فعل ذلك فلاقى وجه ربه راضياً مرضياً .

يكن الأمر فان المحاسني قد حاول صادقاً أن يكون شاعر الملحمة العربية ، وسواء أتمها أم لم يفعل فانه بحق شاعر فحل وعلى أمل أن ترى ملحمته النور في مجموعة منسقة منشورة تحت عنوان « الياذة العرب » كما طاب له أن يسميها .

رحم الله المحاسني وأثابه عما قدمه للضاد . من خدمات جليلة ●

حكمت حسن

إلى صاحب غاضب

للشاعر: الياس قنصل

رويدَك واسمع ما أقول فإنني — أكنّ لك الاخلاصَ في القربِ والهجرِ
تجرّب اسكاتي وما لك حجّة — وكيف يطيب الصمتُ للشاعر الحر؟
وتحسب إرشادي عداوةَ حاقد — يعزّز أسبابَ الخصومة بالمكر
وما أنا إلاّ صاحب كلّ شأنه — رضاك ، ولو ضحّي بما فيه من كبْر
رأيتك في مبنى حياتك آلةً — تقرّ بلا حس وتعْدو بلا فِكْر
تكبّ على جمع الحطام مخصّصاً — له كل جهد ، ثم تفضي الى القبْر
فتنساك دنيا قد جرى بك سيلُها — ويسلوك من فيها كأنك لم تجْر
فحاولت أن أسدى اليك نصيحةً — لتخلص من ليل بهيم بلا فجْر
فتعْلَم أن المرءَ نفسٌ شريفةٌ — وسعيٌ الى العلْياء والحب والبرّ
وان الذي لا ينفع الناسَ صنعُه — يعيشُ بلا مغزى ويقْضي بلا عُمْر
تجاهلْتَ ما أبغي فحقّرت مقصدي — وحرّفت ما أعني فانقصتَ من شعري
وقابلْتَ بالنقد العنيف تساهُلي — وبالغْتَ في التهديد بالناب والظفْر
سلاحِيَ عطفٌ إن بخسْتَ عواطِفي — ودرعيَ إعراضٌ عن اللّمز والهذْر
وما همّني مغْناكَ في دارةِ الغنى — ولا راعني مثْوايَ في مهْمهِ الفقْر
قَصارى هَنائي أن أقوم بواجبي — وغايةُ نصْري أن أغض عن الشّر
اذا كان دربُ الحقّ سهْلاً سلكته — وإلاّ ، فما أخشى من المسلك الوعر
دعوتُك فابحثْ في زوايا جوانحي — وفُضّ غلافَ الروح وانفُذ إلى سري
فإن تلْقَ فيه للضغينة مسرباً — فدونك سيفَ البغض جرّح به صدري
دعوتك فافعلْ ما تشاء فكلما — تماديْتَ في التنْديد أمعنتُ في الصبر
فإن كنْتُ لم أذنبْ فسامحْ براءتي — وان كنتُ قد أذنبْتُ فارض على عذري

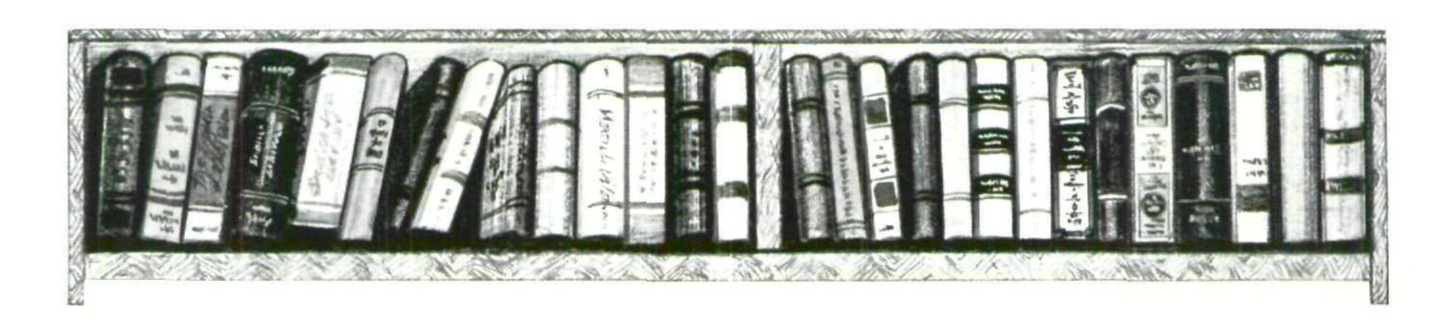
الياس قنصل — الارجنتين

٤

الرّوايــة الانكليزيــة

تــاريخــاً ونقــداً

بقلم: الاستاذ حسين الجيار



لقد تأثر تشارلز ديكنز في انشغاله بنواحي الغموض في الحياة البشرية بصديقه «ويلكي كولنز» الذي كان يتميز بحبه الشديد لهذا الغموض مما جعله بحق الرائد الأول بين كتاب القصة البوليسية الانجليزية.

وكان هناك صديق آخر لديكنز هو «انطوني ترولوب» الذي استطاع بخبراته الكثيرة التي اكتسبها من خلال حياته العملية أن يصور طبقات مختلفة من المجتمع تصويراً لا يمكن ان يغطيه النسيان.

وعندما نتحدث عن الفترة نفسها من العصر الفيكتوري نجد أمامنا ظاهرة فريدة تحتوي على كل شيء، لا في الادب الانجليزي وحده، ولكن في كل آداب العالم على الاطلاق: انها الاخوات برونتي، «تشارلوت واميلي وآن»، اللائي اتحفن الرواية الانجليزية بسبع رائعات، اربع لتشارلوت وثلاث لآن وواحدة فقط لاميلي هي «مرتفعات وذرنج». القصة التي تضمنت الحب والكراهية، الكبرياء والتحيز، الخشونة والرقة، الانفعال الملتهب والعاطفة الجياشة، الفكرة الكونية والمشاعر الانسانية والحقائق الأولية الكبرى للحياة وللوجود.

وبعد الاخوات «برونتي» تأتي «جورج اليوت» او «ماري آن ايفانز» التي نجحت كفنانة كبيرة في التعبير عن مدى احساسها بالجمال وفي ابراز روح المرح والفكاهة. ولكن اروع ما برزت فيه هو تعبيرها عن المأساة التي تتمثل دائماً في شخصيتها — حين يحلمون او حين يضحون — أكثر مما تتمثل في تصاريف القدر.

واخيراً وفي الفترة نفسها ايضاً نرى «مسز جاسكل» صاحبة القلم النظيف والروح الانثوية الرائعة. لم تكن «مسز جاسكل» على نفس مستوى «جورج اليوت» من الناحية الفنية، ولكنها كانت تعبر تعبيراً صادقاً عما كانت تحس به تجاه كل أنواع الظلم التي كانت تسود انجلترا الصناعية في العصر الذي كانت تعيش فيه. وكانت — على العكس من ديكنز — لا تجيد المبالغة في تصوير الأشياء، فالحقيقة أمامها اما خير أو شر وكفى.

وحين نأتي الى المرحلة الاخيرة من العصر الفيكتوري نجد تغييرات اساسية في الاتجاهات عند كتاب الرواية الانجليزية. هذه الاتجاهات تبدو واضحة فيما كتبه عمالقة هذه الفترة: جورج ميريدث، وصمويل تيلر، وتوماس هاردي ثم هنري جيمس.

لقد كان العديد من روايات «جورج ميريدث — George Meredith» معاصراً لروايات جورج اليوت، ولقد كتب أولى رواياته وهي «The Shaving of Shagpat» بعد ظهور «مرتفعات وذرنج» بتسع سنوات فقط. انه بدأ حياته الفنية شاعراً، وساعده ذلك على أن ينمي قدراته في جو افاده كثيراً عندما اخذ في كتابة الزواية، حتى أصبح أول روائي انجليزي يحس احساساً واعياً بالجمال. وبجانب هذا فقد كانت له فلسفة تقابل النظرية التي كانت سائدة في عصره عن الخطأ والصواب. ومع ذلك فقد وصف بالغموض في رواياته، بجانب كونه قليل الوعي بما تحتويه التجربة البشرية من تفاهات. وان نظرة فاحصة الى نثره ترينا ما

في مضمونه من تعقيد يكاد يصيبه بالبوار ، بينما يظهر شعره ملتهباً بالرؤية الذكية ، مما حدا بالبعض ان يتمنوا لو انه لم يسلك طريقاً غير الشعر . ومع ذلك فقد كان جورج ميريدث هو الذي اخرج لقراء الرواية الانجليزية تحفتة « The Egoist » عام ١٨٧٩ حيث تتجلى روح الفكاهة الانجليزية في أروع صورها ساخرة شاملة . ولقد كان يعشق الحب . ثم انه طرق ايضاً ابواب السياسة والتطلع القومي بجانب الانفتاح على العالم الخارجي ، وكثير من رواياته قد وجد له صدى في خارج بلاده : ومن هذه رواية « Evan Harrington » عام ١٨٦١ ، ورواية « Rhoda Fleming » عام ١٨٦٥ ، ورواية « Vittoria » عام ١٨٦٧ ، ورواية « Beauchamp's Career » عام ١٨٧٦ ، ورواية « The Amazing Marriage » عام ١٨٩٥ . انه يهاجم احياناً ككاتب رواية ولكني اثق في انه سيجتاز المحنة على مر الزمان .

وينتمي « صمويل بتلر — Samuel Butler » لهذه الحقبة من تاريخ الرواية بحكم مولده عام ١٨٣٥ ، وتضاعفت شهرته واستمر الاهتمام به الى يومنا هذا . ولقد كان عام ١٨٧٢ حين أصدر روايته الساخرة «Erewhon» التي شبهت برواية سويفت «Gulliver's Travels» . ولقد يسمى بتلر باسم سويفت القرن التاسع عشر لشمول رواياته على عديد من مظاهر الحياة من ناحية ، ولثورته ودقته في نفس الوقت من ناحية اخرى . ولقد خاض كثيراً من مسائل العلم مما حمل كثيراً من العلماء على مقاطعته ، ولكن ذلك قوى من عزمه ودفعه الى المزيد من استجلاء الحقائق العلمية . ولقد كانت مظاهر نشاطه كثيرة ، ولكنه يدخل في مجال بحثنا بروايته الوحيدة الفريدة « The Way of All Flesh » التي بدأ كتابتها عام ١٨٧٢ ، ثم انتهى منها عام ١٨٨٥ ، ولم تصدر الا في عام ١٩٠٣ . انها تحليل هجومي وعلمي معاً لحياة الاسرة في الطبقة المتوسطة ، وخاصة للعلاقة بين الآباء والابناء وابعاد ونتائج هذه العلاقة . لقد كان من حسن الحظ ان السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر بكل ما يسودها من تقديس للأسرة لم تشهد هذه الرواية بالرغم من انها كتبت خلالها . وكان عام ظهورها في ١٩٠٣ وقتاً مناسباً . لقد كانت « The Way of All Flesh » مصدر الهام لمدرسة كاملة في الرواية الانجليزية اتخذت الخروج على جميع التقاليد مظهراً لها .

ولقد ولد «توماس هاردي — Thomas Hardy» عام ١٨٤٠ بعد مولد « ميريدث » باثنتي عشرة سنة . وهذان الروائيان من كتاب العصر الفكتوري الاخير يرتبطان من حيث كونهما اصلاً شاعرين . ولكن بينما يمكن ان نعتبر « ميريدث » نتاجاً جانبياً رائعاً للعبقرية الانجليزية ، فان توماس هاردي يعتبر واحداً من أعلامها البارزين . انه شخصية تجمعت فيها مظاهر كثيرة من مظاهر هذه العبقرية . وهو يعد كاتب انجلترا الأول الذي حدد مجال قصصه في منطقة سماها «وسكس — Wessex » في قلب المقاطعة التي كان ينتمي اليها وهي مقاطعة دورستشير «Dorsetshire». انه يسبغ نوعاً من سمو الوجود على المنطقة التي كان يكتب عنها . ويمكن القول صدقاً بان «هاردي» قدم لمقاطعته الانجليزية ما قدمه « سكوت » لاقليمه على الحدود بين انجلترا واسكتلندا . ان روايات « The Return of the Native » عام ١٨٧٨ ، « Tess of the D'Urbevilles » عـام ١٨٩١ ، « Jude the Obscure » عام ١٨٩٦ ، تصور ثلاثتها المأساة ، وتعتبر أروع ما كتب هاردي من روايات . وبجانب هذة التحف الثلاث هناك روايات اخرى لا يمكن ان تنسى أهمها : « Under the Greenwood Tree » عام ١٨٧٢ ، « Far from the Madding Crowd » عام ١٨٧٤ ، « The Mayor of Casterbridge » عام ١٨٨٦ ، « The Woodlanders » عام ١٨٨٧ .

لا تستطيع انجلترا حقيقة ان تنسب اليها « هنري جيمس » « Henry James » بالرغم من انه نسب نفسه اليها حين جاء اليها لتستقر حياته بها ، وليكتسب الجنسية الانجليزية عام ١٩١٦ . فقد كان « هنري جيمس » امريكياً ولد في نيويورك عام ١٨٤٣ ، وارتبط منذ شبابه بكل ما كان يمثل الحضارة والمدنية في نصفي الكرة الأرضية . ولقد كان قوي الملاحظة يصف ما يشاهده وهو واقف يتفرج خارج دائرة الأحداث . وفي الوقت نفسه يصف ما يحس به وهو مأخوذ بما في داخل دائرة الاحداث . ويمكننا ان نعتبره محللاً للحضارة ، ومن هذه الناحية فقد جذبته انجلترا بكل ما فيها من الغاز ومفارقات وتراث رائع محير ، وكانت له كفنان علاقات بغيره من الفنانين في الخارج من أمثال فلوبير وترجينيف ، ومع ذلك وجد ان عليه ان يتوج انجلترا في نهاية القرن الماضي وفي مطلع القرن الحالي بمجموعة من الروايات نفذت الى اعماق انجليزيتها بصورة تدفع الى الظن بانها لم تشاهد مشاهدة كاملة مـن قبل .

ويمكن القول بأن مشاهدات جيمس كانت تتم في اطار من أحاسيسه الاجتماعية ، فقد كان عنده حب جمالي للمجتمع الراقي ، سواء كان هذا الحب هو حب الفنان او الارستوقراطي . وكما كانت الحال مع « ميريدث » فقد كانت الرغبة هي التي تجذبه نحو الناس والأماكن التي كتب عنها . ولقد كانت أية شخصية في قصصه أو رواياته — مهما كانت متواضعة — ترفع على يديه

الى مستوى الطبقة الراقية ، وكان هذا الارتفاع يتم بالنسبة للأعمار كما كان يتم بالنسبة للطبقات . من أجل هدا نرى اطفاله — بكل رقتهم—يبلغون درجة كبيرة من النضج ليست مألوفة بالنسبة لأعمارهم.

ولقد كان احساس جيمس بالجمال لا يقابله الا احساسه بالشر : فقد كان الاشرار من شخصياته لا يكفيهم الاغتصاب والتهديد ، ولكنهم يعمدون بصورة مخيفة وغامضة الى الافساد التخريب . ومن اجل هذا فان شخصياته البريئة تتحرك داخل مناطق محفوفة بالخطر من كل جانب ، ودائماً ما تكون الروح — لا الجسد — هي التي تتعرض للخطر . واحياناً يتحرك الشر تحركاً مباشراً في قليل من قصص جيمس ، واوضح مثال لذلك قصة « The Turn of the Screw » . اما في غالبية الروايات فان الشر يتحرك بصورة غير مباشرة ، اذ ربما يمارس عمله من خلال العواطف والرغبات ومجالات اظهار الاخلاص والولاء : مثال ذلك « The Spoils of Poynton » عام ١٨٩٦ .

وهكذا فقد نقلنا هنري جيمس من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين . ولقد كان هناك غيره من الروائيين الذين عاشوا وكتبوا في فترة الانتقال نفسها . ولا يسمح المقام بالحديث عنهم جميعاً ، خاصة اذا وضعنا في الاعتبار ان الحديث عنهم قد يتسبب في اظهار العصر الذي عاشو فيه في غير صورته المتكاملة — ذلك انهم قد أمضوا وقتاً طويلاً جداً كي يستطيعوا ان يقفوا بجوار معاصرين لهم شغلوا قلوب واذهان الناس منذ اللحظة الاولى التي ابرزوا فيها فنهم . وعدا هؤلاء واولئك نذكر من الروائيين في هذه الفترة « جورج جسنج — George Gissing » وكذلك « جورج مور — George Moore » والاول واقعي لا يعرف الالتواء ، أما الثاني فواقعي يعشق الجمال . وهناك ايضاً « روبرت لويس ستيفنسون — Robert Louis Stevenson » الذي كان الخلف لسكوت فيما ترك في انجلترا من تأثير كبير . ومثل ستيفنسون من حيث قوته في الارتفاع بقصة الحدث الى مستوى بطولي — واحياناً شاعري — نرى جوزيف كونراد « Joseph Conrad » القبطان البحري البولندي الذي أضاف الى الرواية الانجليزية كثيراً من الحرارة والحماسة والقوة .

ونأتي بعد ذلك الى اربعة كتاب لا يمكن ان يخطئهم الحصر ، لأنهم اثروا في تيار الرواية الانجليزية تأثيراً كبيراً ، كل في اتجاه يختلف عن اتجاهات الآخرين . وأول هؤلاء هو « راديارد كيبلنج Rudiard Kipling » الذي كان واقعياً غير متميز فيما يتعلق بالحياة الانجليزية في داخل انجلترا وخارجها . ولقد كان صحفياً يلمس ببصيرة الصحفي الجانب الدرامي للامبراطورية البريطانية . وكان يحب النشاط والشجاعة والحركة في كل اشكالها . وكان خير ما كتبه في مجال القصة القصيرة حيث يهتم بالمكان والحدث أكثر من اهتمامه بالشخصيات ، وكان رائعاً في وصف الحركة قادراً على ان يجعل القارىء يرى ويشم ويلمس كل ما يصفه ، لأن أوصافه تعبر عن الحقيقة الكاملة . وما روايته الطويلة « The Light That Failed » إلا خير مثال وتعبير عن احساسه العاطفي ككاتب بكل ما يصفه . ولقد كتب مجموعة من قصص الحب القصيرة بعنوان « Plain Tales From the Hills » لا يؤيد فيها الحب كعاطفة من الناحية العقلية .

ويأتي بعد ذلك هـ.ج . ويلز « H.G. Wells » الذي كان — مثل صمويل بتلر — ينظر الى الحياة نظرة علمية ، ويستخدم مجالات العلم في رواياته . ومثل هاردي فقد كان يملك الاحساس الدائم بالمستقبل . ولكن رواياته لها مكانها المستقل في الفن بكونها صوراً من الخيالات الرائعة . وأمثلة ذلك كثيرة منها : « The Time Machine » عام ١٨٩٥ — « The War of Worlds » عام ١٩٠٤ . ولقد برز ويلز في مجال الاحساس بعصره ، وما يحمله ذلك العصر من آمـال وآلام . وكان يظهر بعضاً من روح ديكنز في الفكاهة . ومن جانبه هو أيضاً فقد أثرى المكتبة الانجليزية بروايات عديدة منها — عدا ما ذكر — « Kipps » عام ١٩٠٥ و « The History of Mr. Polly » عام ١٩١٠ و « Ann Veronica » عام ١٩٠٩ و « Marriage » عام ١٩١٢ و « John and Peter » عام ١٩١٨ و « Mr. Britling Sees it Through » عام ١٩١٦ و « Tono Bungay » عام ١٩٠٩ و « The New Machiavelli » عام ١٩١١ .

ثم هناك « آرنولد بينيت — Arnold Bennett » الذي يعلو الفنان في شخصيته على رجل الفكر ، ويتضح ذلك جلياً في تحفته الرائعة « The Old Wives' Tale » عام ١٩٠٨ . ولقد كانت هناك في الواقع ظروف وأحوال عامة أثارت اهتمام « بينيت » من حيث أنها تخدم تفسير الدقائق الخاصة للحياة . وكما فعل هاردي ، فقد أوجد « بينيت » لنفسه منطقة للحركة ، أعاد خلقها في شمال وسط انجلترا ، وهي منطقة المدن الخمس التي يظللها السواد الناشيء عن دخان مصانع الخزف .

ولقد كان « بينيت » يتميز بروحه الساخرة التي لازمته طوال فترة نشاطه الفني ، لدرجة جعلته يسخر من نجاحه حين صادفه ذلك النجاح . وبعد « The Old Wives' Tale » كتب ثلاثية — « Clayhanger » ما بين ١٩١٠ و ١٩١٥ ، ثم « Riceyman's Steps » عام ١٩٢٣ . وقد عاش سنوات في فرنسا وأحبها



وتعلم منها التقدير الواجب للفن ، وشغل ذهنه كثيراً بمثلها العليا للجمال ، ومن هنا تبرز نظرته الموضوعية لانجلترا كشيء له قيمته من جانب رجل انجليزي .

وأخيراً يأتي « جون جولزويرذي – John Galsworthy » بمجموعة رواياته « Forsyte Saga » التي تقرأ في خارج انجلترا كوثائق لها قيمتها عن الطبقة المتوسطة العليا في انجلترا . انها تتميز بالتعمق الفكري ، والاحساس بالجمال ، وبالشعور العاطفي اليائس نحو تحقيق العدالة الاجتماعية .

هؤلاء الكتاب الأربعة كبيلنج ، وويلز ، وبينيست ، وجولزويرذي كانوا في وقتهم أكثر ثورة من الشباب . وان ما نادوا به يؤخذ اليوم قضية مسلمة ، وليس لأي روائي في الوقت الحاضر أن يعترض على ما كانوا يكتبون . ولقد جاء في أعقابهم كاتبان آخران هما « اولدس هكسلي – Aldous Huxley » و « سمرست موم – Somerset Maugham » اللذان لم يضيفا كثيراً الى التراث الضخم للرواية الانجليزية . وبالنظر الى الوراء قليلاً يمكننا أن نقول ان الروائيين الانجليز منذ القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً قد برزوا في خلق الشخصيات وفي تصوير المناظر أكثر من تفوقهم في تحليل الأفكار والعواطف . فقد تركوا لقراء الانجليز متحفاً من الشخصيات المتباينة ، وعديداً من المناظر الرائعة .

ثم هناك روايات « أي . م . فورستر – E. M. Forster » التي تتميز بحبكتها القصصية وتهتم بعض الشيء بالشخصية . انها تتميز بروح عالية من الفكاهة تقترب من روح « جين اوستن » وان المقارنة التي يلجأ اليها « فورستر » تضيف الى روعة التركيب والمغزى في رواياته . خذ مثلاً المقارنة بين دولة وأخرى مثل ما بين انجلترا والمدن الجبلية في ايطاليا كما في « Where Angels Fear to Tread » وبين انجلترا والهند كما في « A passage to India » وبين التقاليد والعواطف كما في « A Room with a View » ، أو بين الوهم والحقيقة كما في « The Longest Journey » وفي « Howard End » . وفي كل من هذه الروايات والمقارنات نرى الشخصية الرئيسية في حالة توتر دائم من حيث التصميم واتخاذ القرارات ، وفي هذه التجربة يلجأ البطل دائماً الى القيام برحلة غالباً ما تكون الى بلد ناء خارج انجلترا نفسها .

أما في روايات « فيرجينيا وولف – Virginia Woolf » فان الشخصيات تتحرك قليلاً ، وتبدو وكأنها جامدة في مكانها بينما تتحرك الأحداث من حولها . لهذه الشخصيات وجودها الذاتي الداخلي العميق ، وكل يولد عالمه أو عالمها الخاص داخل النفس . وقد كان هذا النوع من الخيال بقوته النقية الصافية جديداً على أسلوب الرواية الانجليزية . قد يخطر ببال البعض أن يقارنوا « فيرجينيا وولف » في هذا المجال باميلي برونتي ، ولكن المقارنة هنا لن تكون دقيقة ، حيث أن اميلي برونتي – كما أسلفنا – كانت هي المرأة الوحيدة القادرة على التسامي بالخيال والارتفاع بالواقع الى مجالاته العليا . لقد كانت « فيرجينيا وولف » تختار – موضوعاً لقصصها – مادة قد تبدو غير معقولة فتشعلها ، وحين تشتعل فانها كانت قادرة على أن تجعلها ملتهبة كلى الالتهاب . لقد القت وراء ظهرها كثيراً مما كان يعتمد عليه غيرها في كتابة الرواية ، واعتمدت في معظم ما كتبته على ما تشعر به شخصياتها في داخل أنفسهم . انهم يرون ويشعرون .

لقد كانت روايتها « The Voyage Out » هي الوحيد التي صورت فيها شخصيات تسافر وترحل الى جنوب أمريكا . وفيما عدا ذلك فان بقية شخصياتها محصورة في تجاربها الشخصية في لندن وفي الريف وعلى شاطىء البحر . ولم يحدث من قبل أن صورت انجلترا كما صورتها « فيرجينيا وولف » بفنها الملتهب . ومرة أخرى في « Orlando » تعود بالذاكرة الى ماضي بلادها . وفيما عدا ذلك فانها تصور المألوف الآن ، فالزمن لا العاطفة هو الذي ينسج – من خلال تيار الشعور – قصص رواياتها ، ومع ذلك فقد استطاعت « فيرجينيا وولف » أن تثبت مقدرتها الفائقة في وضع لمسات فن الحياة وراء قوة الزمن .

وبعد ، فقد كانت هذه عجالة لتاريخ الرواية الانجليزية – تاريخاً ونقداً – لم أشأ أن أتعرض فيها للروائيين المعاصرين ●

حسين الجبار – جامعة الملك عبد العزيز – جدة

استدراك

وقع سهواً خطأ في نص الآيتين الكريمتين في الصفحة الثالثة من عدد محرم ١٣٩٧ هـ والصواب هو :

« عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى » .

كما وقع خطأ آخر في نص بيتي الشعر المنشورين على الصفحة الخامسة من العدد نفسه والنص الصحيح هو :

آلوْا عليهـــا يمينـــاً لاتكلمنـــا
من غـــير ســـوءٍ ولا من ريبـــةٍ حلفوا
ياحبـــذا الحرجُ بين الدام والأدَمى
فالرمث من بُرقـــةِ الرّوحان فالغَرَفُ



أسبابها وبواعثها، وشواهد عليها في الماضي والحاضر

الشائعة ظاهرة اجتماعية انسانية بعيدة الغور في النفس البشرية ، ولا اظن ان خطرها قد استفحل بانتشار وسائل المواصلات والتنقلات والارسال على كافة الوانها واشكالها ، وانما كان خطرها مستفحلاً وشرها عظيماً ، بغير حاجة إلى كل هذه الوسائل ، فكأنما هي تنتشر على متن الهواء ، وتتخذ من النسيم الذي يسري مطايا لرواحها وغدوها . هي قديمة قدم الانسانية ، ودلالة ذلك انها ارتبطت بالاسطورة ، وليس مثل الاساطير — وما جرى مجراها — معبراً عن نفسيات الشعوب واخلاقها وانماط حياتها ، وليس مثل الاساطير يضرب في أعماق التاريخ إلى أبعد اغواره ، فكأنما هي بداية وعي الناس بذواتهم وتعبيرهم عن مشاعرهم واحاسيسهم على هذا النحو الساذج البسيط الذي تعبر عنه الأسطورة في غيبة من العقل والمنطق والتفكير السديد .

والأسطورة في رأي بعض الباحثين هي شائعة قد ثبتت في مكانها فلم تتلاش ولم تتزحزح ، وبقيت موضوعاً للحديث تتناقله الأجيال في الحكايات والأقاصيص ، عبر الحقب والأزمان .

وربما عزز هذا الرأي ان الأسطورة والشائعة يعبر عنهما بلفظ واحد يدل عليهما معاً عند بعض الشعوب . فهو عند الصينيين — على سبيل المثال — « شوان » يعنون به الأسطورة ، كما يعنون به الشائعة في آن .

وهو ارتباط ينبغي أن يكون له دلالته في عصر التفكير والمنطق ، تلك هي دلالة الغرابة والبعد عن الواقع في الأسطورة والشائعة معاً . واذا تركنا الأساطير والتاريخ الثابت ، أو المتأرجح ، عرفنا انه كان للشائعات في العصر الروماني دور معروف ، يظهر فيما كان يقيمه أباطرة الرومان ، مما عرف باسم « حراس الشائعات » ينقلون اليهم ما يدور على الألسن ، وما يشاع بين الناس ، فيأخذون الحذر ، ويتوخون الحيطة والاحتراس ، وربما قام هؤلاء الحراس بدور المهاجمين فأطلقوا شائعات مضادة يحاربون بها شائعات مهاجمة ، فذاك ضرب من ضروب الحرب النفسية ، عرفه الرومان ، قبل أن يعرفه العصر الحديث بمئات السنين .

وجاءت الحرب الحديثة بأسلحتها الحديثة فرأت في الشائعة سلاحاً مهاجماً له فعله واثره الذي لا يقل عن اثر غيره من الأسلحة فتكاً ودماراً ، واشاعة للفزع والرعب والخوف ، واصبحت لها استراتيجية وخطط ، الم بها « ادموند تيلور » في كتابه « استراتيجية الرعب » ، واضطرت امريكا ابان الحرب العالمية الثانية إلى أن تنشيء الاجهزة وتقيم الادارات والاقسام التي تتولى دحض الشائعات ، فكأنها بذلك قد أنشأت اسلحة مضادة لصد أخرى مهاجمة .

وكان لا بد من الاستعانة بالنفسانيين في هذا المجال . فالشائعة ، اولاً وآخراً ، مرتعها الخصيب هو النفس البشرية . تنمو فيها وتزدهر ، وتورق وتؤتي أكلها . وشاركت الصحافة الامريكية في ذلك مشاركة ذات اثر ، فأنشأت صحيفة « هيرالد ترافلر » ببوسطن ركناً اسمته « عيادة الشائعة » يعود الفضل في انشائه وابتكاره إلى المحرر « و . ج . جافين » . فهو يفحص في عيادته الشائعة التي تنتشر ، ويُعمِل فيها مشارطه ومعداته ، سبراً لغورها ، ووصولاً لمدى الكذب والصدق فيها .

ونجحت الفكرة نجاحاً ادى الى انتشارها في عشرات من الصحف والمجلات الامريكية ، تسهم مع أجهزة الحرب والدفاع في ميدان لا يقل أهمية عن ميدانها ، ان لم يزد في بعض الحالات .



بقلم: الاستاذ عزت محمد ابراهيم

وربما كان الخطأ الذي تورطت فيه تلك الصحف هو جريها وراء الشائعات ومحاولة اصطيادها ، لتكذيبها ودحضها ، حتى بلغ الأمر حد الاستعانة بمراسلين يمدونها بما يسمعون وتلتقطه اذانهم ، ومن السهل حينذاك ان تقع الصحيفة في شرك منصوب ، فيؤول أمرها إلى أن تصبح هي ذاتها مصدراً لترويج الشائعة من حيث ارادت ان تكون وسيلة لدحضها والقضاء عليها .

ولعله لهذا السبب قام الاتجاه المقابل لعلاج الشائعة بتجاهلها حتى تقتل نفسها آخر الأمر ، حين لا يقوم دليل على صحتها ، وذلك هو رأي القائلين بأن تكذيب الشائعة وسيلة إلى انتشارها وذيوعها وليس وسيلة للقضاء عليها ودحضها .

وأياً كان الرأي في القضاء على الشائعة ودحضها ، ودرء خطرها ، فقد أصبحت مبحثاً من مباحث علم النفس ، وباباً من أبوابه ، يتوفر عليه متخصصون ، ويدرسه دارسون ، وقد وضع الدارسون والمتخصصون فيه للشائعة تعريفاً وقانوناً ، وخطاً ومساراً ، وشرحوا الجو الذي تبيض فيه وتفرخ ، وتزدهر فيه وتورق . ومما كتبه « جوردون اولبورت » و « ليو بوستمان » بصدد تعريف الشائعة : « ان الشائعة تنطلق وتمضي في رحلتها في وسط اجتماعي متجانس بفضل الدوافع القوية عند الاشخاص القائمين بنقلها ، ويتطلب التأثير القوي لهذه الدوافع ان تضطلع الشائعة بدور تبرير هذه الدوافع : بمعنى انها تفسر وتبرر وتسبغ دلالة على الدافع الانفعالي القائم ، واحياناً تكون العلاقة بين الدافع والشائعة من القوة بحيث نستطيع أن نصف الشائعة ببساطة بأنها اسقاط لحالة ذاتية وانفعالية معاً » . والاسقاط هنا اصطلاح نفساني المقصود به التخلص من نواقص الذات بالصاقها بالغير ، واسقاطها عليه ، وجعلها موضوعاً لشائعة يرددها ويعمل على نشرها . وهناك من يردد شائعة لمجرد الادعاء والمباهاة بمعرفة ما لا يعرفه سواه ، وهناك من يرددها ثرثرة ورغبة في تحريك لسانه على أي نحو كان .

وقسموها تقسيماً ، فمنها — عندهم — ما تحبو ، فهي تنتشر على مهـل كأنها السرطان يتغلغل في الجسم لا يكاد يحس به ، حتى اذا اشتشرى اطبق عليه فأصـاب منه مقتلاً ، ولا حيلة بعد ذلك ولا خلاص . ومنها « المندفعة » التي تنتشر انتشار النار في الحطب الجزل ، سريعة خاطفة ، لا يكاد يطفأ منها جانب حتى تكون قد انتشرت في آخر تعيث فيه فساداً . ومنها ما يغطس ثم تطفو ، فأسموها « الغاطسة » تختفي حين تؤدي الغاية منها ، ثم تظهر وقت الحاجة إلى ظهورها ولكنها لا تمحى ولا تموت ، وتظل على الدوام جاهزة على أهبة الاستعداد لاداء المطلوب منها . واستدلوا على تلك « الغاطسة » ببعض شائعات الحرب العالمية الأولى التي كانت قد اختفت حين وضعت الحرب اوزارها ، وظن انها قد توارت إلى الأبد فاذا بها تظهر مع اشتعال أوار الحرب العالمية الثانية .

ومن هاتيك الشائعات شائعة الأسير وطابع البريد ، وكأنها الاقصوصة التي تقرؤها مرة ، وتعاود قراءتها فلا تفقد طرافتها وجدتها في كل مرة تقرؤها فيها ، ومغزاها ان اسيراً ارسل الى اهله خطاباً ليس فيه ما يلفت النظر الا اشارته إلى نزع طابع البريد والاحتفاظ به الى ان يفك اسره ، ويعود الى اهله سالماً ، ولم يكن يعرف عن هذا الأسير ولع بجمع الطوابع ، او الاهتمام بها ، وينزع الطابع عن الخطاب ، فاذا من تحته ما ينبيء بأن الأسير قد قطع الاعداء لسانه . وما أسرع ما تنتشر شائعة قطع السن الأسرى في المعتقلات . وابسط دواعي



نفيها وانكارها ان خطابات الاسرى لا تلصق فوقها طوابع ، ولكن الشائعة لا منطق لها ، ولا محك عند الناس توضع عليه فيعرف صحيحها من زائفها .

ولابد ان يكون للشائعة مصدر ، ولكنه المصدر المجهول الذي يكاد يكون من المستحيل الوصول اليه ، وهي في أغلب الأحوال عند مصدرها الأول متباينة كل التباين عن حالها بعد انتشارها وذيوعها ، فهي كالنكتة والفكاهة القصيرة من حيث مصدرها المجهول ، وهي مثلها كذلك في انتشارها وذيوعها ، وسرعة تناقلها بين الأفواه ، وترددها على الشفاه ، وخاصة اذا مست شؤون الناس واحوالهم ، ولامست ما يشغل بالهم من مسائل وقضايا .

ومن طريف ما يذكر في باب الشائعات ، شائعة المرأة التي تلد الأرانب ، تلك التي انتشرت في انجلترا زمناً ، وثارت ضجة ، دوى لها د وي ، وبقي منها حتى اليوم اسماء شخوصها ، والمتصلين بها ، تشهد بما كان لها من سطوة وقوة ، وشغل للناس والمسؤولين بالاهتمام بها ، وتحري صدقها من زيفها . واسم المرأة هو « ماري » واسم زوجها « كوفت » واسم الطبيب الذي كان يولدها الأرانب هو « هيوارد » الذي كان يؤكد ان الواقعة صحيحة ، وان المرأة تلد الأرانب بعد ان ولدت البنين ، وان الأرانب والبنين يعيشون في وئام اخوة متحابين .

وثار الشعب البريطاني مستنكراً ، ودافعت المرأة عن نفسها ، مؤكدة صحة ما يقال وما يشاع . وشكلت لجنة لتقصي حقائق المرأة التي تلدا لأرانب ، ولم تصل اللجنة إلى نتيجة بادىء ذي بدء ، وثار رئيسها وهاج وماج ، وهدد « ام الأرانب » بشق بطنها ، والتأكد بنفسه من هذه الشائعة التي لا سبيل إلى دحضها . عند ذلك انهارت المرأة ، واعترفت بما كان..هاجمها يوماً ارنب بري على حين غفلة ، فارتاعت واسقطت حملها .

وكانت تلك هي البداية التي انتشرت منها الشائعة التي عمت بلداً بأسره ، وأثارت فيه البلابل والشكوك .

ومثل هذا ما وقع في « اندونيسيا » منذ عهد قريب ، حين ادعت امرأة ان الجنين في بطنها يتكلم ، وشاع امرها وذاع ، حتى شغل الناس جميعاً : حاكمين ومحكومين ، وحتى استدعى اهتمام رئيس الدولة نفسه ، ثم افتضح امرها ، وآل الى ما آل اليه « ام الارانب » في انجلترا قبل مئات السنين .

ولأن الشائعة ظاهرة اجتماعية انسانية ، فما كان الأدب ، والقصص منه على وجه الخصوص ، ليغفل عن تصويرها والافادة منها ، وقد صور الأدباء ذلك في أكثر من عمل ، اختار منه قصة « تحية الأجراس » للكاتب الامريكي « جون هيرس » ، وفيها نعرف فعل الشائعه زمن الحرب ، حين تكون اوتار النفوس مشدودة على آخرها ، وتكون الكلمة الواحدة مقصودة او غير مقصودة ، كأنها زيت يصب في أتون من نيران .

تقع أحداث القصة في مدينة « ادانو » الايطالية ، حين نزلت بها جيوش الحلفاء لتحرير ايطاليا من النازية والفاشية ، فقد كان لا يزال في ايطاليا من يمد لها العون ، سواء بالسلاح ، او باشاعة الشائعات التي ترمي إلى البلبلة ونشر الذعر بين النفوس ، حتى لا تجد القوات الغازية سنداً لها من أهل المدينة فيما لا غنى لها عنه من عون ومساندة ، وكان من ذلك تفريغ حمولة مركب ، وقد جمع له العمال بعد عناء . فالأيدي العاملة قليلة ، والناس يتوجسون خيفة من انقضاض قوات الالمان بين لحظة وأخرى على قوات الحلفاء تعيدها من حيث أتت .

وكان العمال يتأهبون للقيام بعملهم حين اندس بينهم غريب من سكان « أدانو » واختار اربعة من العمال يتجاذب معهم أطراف الحديث ، كأنما الأمر قد وقع صدفة ، وليس عن قصد محكم ، وتدبير مقصود قال :

— هل سمعتم الأخبار ؟

ورد احد الاربعة متسائلاً :

— اخبار عن أي موضوع ؟

قال الرجل الغريب :

— بخصوص الهجوم الألماني المضاد .

انني قلق منذ الصباح بسبب ما سمعته . ولم يكن احد من العمال الأربعة قد سمع شيئاً من هذا القبيل ، ولم يكن للأمر كله ظل من حقيقة ، ولكن اقل الاربعة شأنا وابعدهم عن أن يكون مصدراً لخبر ، رأى في الأمر مناسبة لإضفاء أهمية على نفسه فقال :

— لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل .

وممن سمعه ؟ من العمدة قبل ان يبعده الحلفاء . ويطول الجدل بين العمال الأربعة من جهة ، وبينهم وبين الغريب من جهة اخرى ، وهو يديره بحنكة وذكاء نحو غايته المقصودة ، وانهى حديثه معهم قائلاً :

— ان الالمان سيبدأون هجوماً على ميناء « ادانو » في الساعة الحادية عشرة ، بالغازات السامة وسيكون الهجوم بطائرة واحدة .

وفي الموعد المحدد حلقت طائرة ، لم تكن طائرة الهجوم المزعوم ، وانما كانت طائرة بريد اعتادت التحليق في هذا الوقت ، وانتشر الرعب ، وساد الفزع ، وصرخ الغريب قائلاً :

— يا الهي ، انني اشمها .

وولى مدبراً بعد أن ادى دوره في عناية واحكام .

ولم يلبث أثر الشائعة أن انتقل من الميناء حتى عمّ المدينة كلها ، حين اتجه واحد من العمال إلى الكنيسة ، ورأى ان واجبه يدعوه إلى القيام بعمل محمود ، فدق جرسها تنبيها وتحذيراً ، وسمع الناس الجرس يدق في غير وقته فازدادوا رعباً على رعب ، واختلط الحابل بالنابل ، وانطلقت من الأفواه صيحات الفزع والذعر : الغازات ، الغازات السامة ، الالمان .

واقتضى الأمر جهداً جهيداً من سلطات المدينة لكي تعود الأمور إلى نصابها ، ولكي يثوب الناس إلى الهدوء والسكينة حتى يستمعوا إلى حاكم المدينة ليقول :

لا وجود لغازات سامة ، إنها شائعة مضحكة●

عزت محمد ابراهيم — القاهرة

طريق الإيمان

للشاعر: محمد فهمي سند

يا طريقي .. ألف درب أنت .. ام كل الدروب
انني اخطو على وجهك خطو المستريب
يعتريني الخوف أن أسقط في حضن المغيب

* * *

خطوتي تشكو ثراك الجدب يا دنيا عذابي
وامتطاء الليل يا دربي ثقيل متغابي
نام كالظل لظل الوهم في وجه الروابي

* * *

ان زادي يا طريقي حفنة من أغنيات
ورباب مرهف الأوتار يسبي كلماتي
أتراني سوف ارتادك في فجر سباتي ؟

* * *

أم بلوغ المنتهى شيء محال يا طريقي
ان عمري نغمة وهي على وجه غريق
فاستفيقي يا خطى اللحن ، تغني واستفيقي

* * *

داعبي الأوتار .. بوحي بالمنى في كل غنوة
واغرسي الأمال صبراً وجهاداً وفتوة
واذا الحزن تراءى دامعاً في كل خطوة

* * *

فاتركيه .. واقبسي النور حنانا بالسماء
فالمنى العذراء تنثال وجوداً بالدعاء
يا اله النور كم أشتاق فيضاً من ضياء

* * *

لأحث الخطو صوب الناس كي أحيا هنالك
أبعث الأنغام والآمال في كل المسالك
استحث الجمع أن ينساق في درب جمالك

* * *

واذا نفسي دعتني أن ألبي ذنب نفسي
واذا كأسي أسالت شهدها في كل كأس
لن ألبي دعوة النفس ففيها كل يأس

* * *

والكؤوس الضاحكات الثغر اسقيها التراب
لا أريد الكأس غير الصبر في كل شراب
كي أروض الدرب لا أشكو طريقاً من عذاب

* * *

كي يكون الزاد ايماناً وصبراً وفتوة
وربابا صادق النغمات يشدو كل غنوة
كي يكون الدرب ازهار حياة فوق ربوة

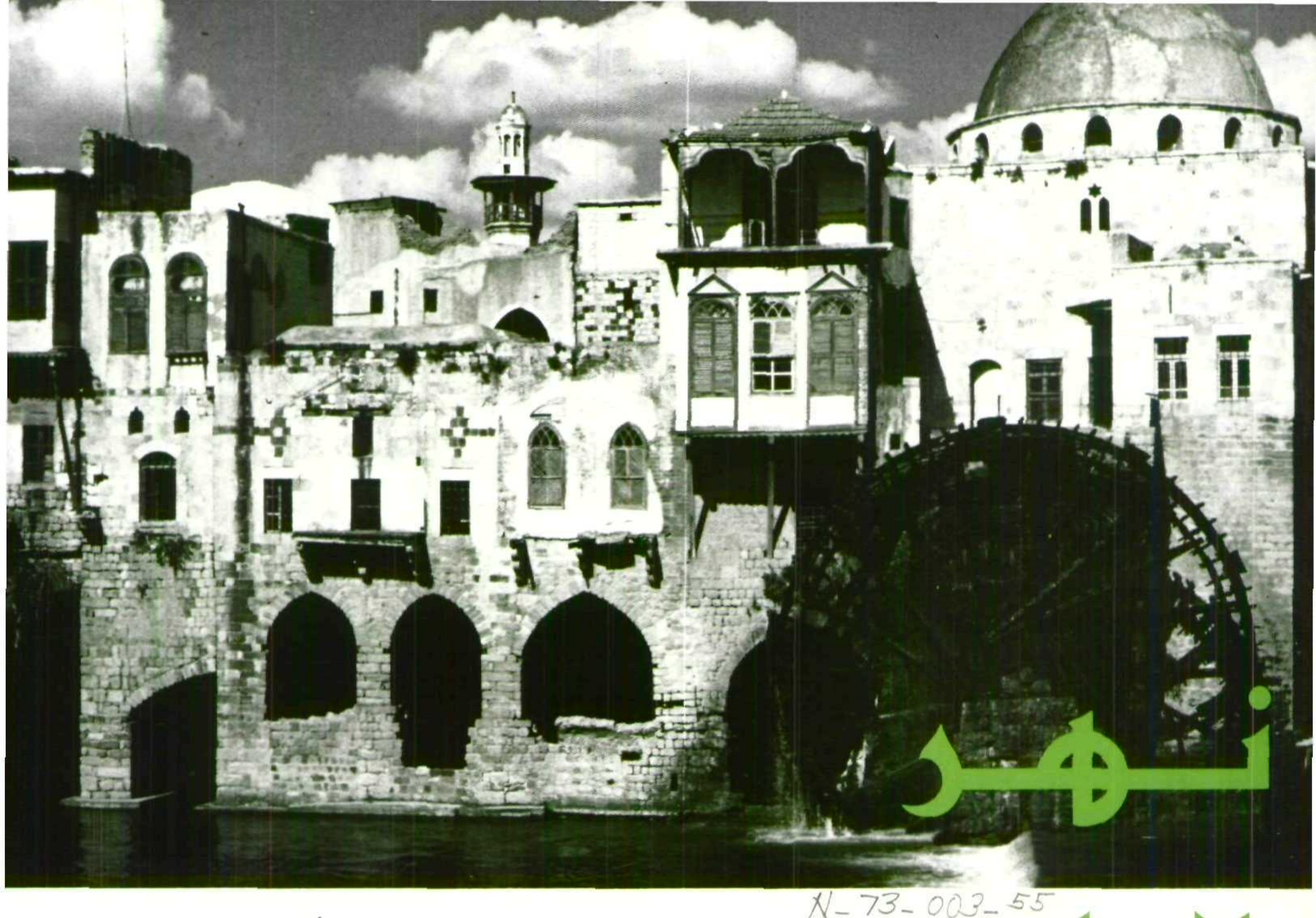
* * *

كي أرى النور فلا أشكو الليالي المظلمة
كي أعيش العمر في أمن خطاه الملهمة
كي أروّي مسمع الانسان أسقي برعمه

* * *

يا طريقي هنا أنا أخطو ولا تهمي دموعي
اذ غفا اليأس وذابت كل آلام الضلوع
كي تغني يا ربابي .. كي تضيئي يا شموعي

محمد فهمي سند — القاهرة



نهر العاصي

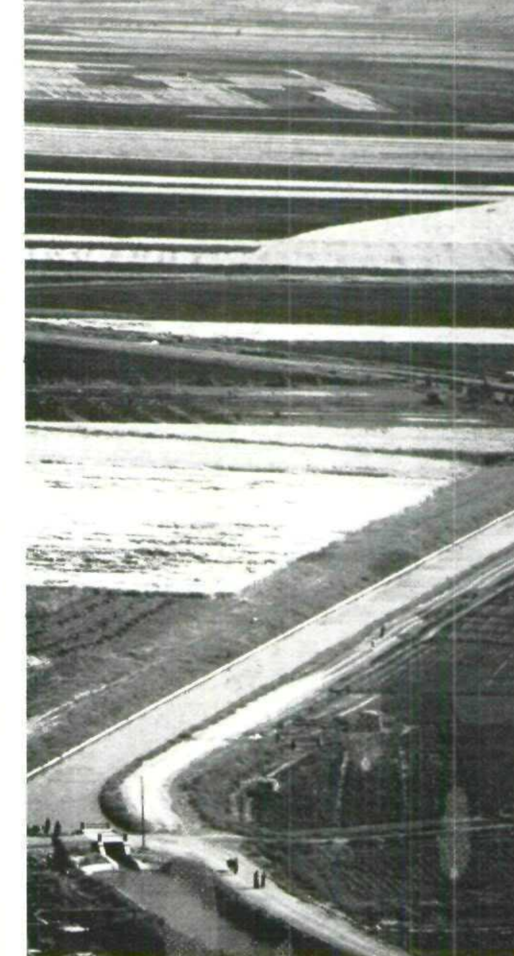
تركيا
سورية
البحر الأبيض المتوسط
نهر العاصي
حماه
حمص
جبل لبنان
بيروت
دمشق

من بين طبقات الصخور في جبال لبنان ، تنبع مياه عذبة رقراقة ، وتنساب خلال ممر عميق متعرج ، لتصب في بحيرة صغيرة تعرف باسم بحيرة « قَدَس » ، مياهها زرقاء صافية تنعكس على صفحاتها أشعة الشمس الذهبية . ومن هذه البحيرة الجميلة ينطلق مجرى مائي ، شاقاً طريقه نحو الشمال بين أشجار الصفصاف الممتدة على جانبيه ، ثم يواصل سيره ببطء ماراً ببحيرة حمص في سورية ، ليشق طريقه بين مروج خضراء على جانب الصحراء السورية الكبرى متجهاً نحو مدينة حماة ليواصل مسيرته خلال مستنقع من القصب الكثيف ، متجهاً غرباً نحو تركيا حيث ينساب خلال الشواطيء المقفرة متسللاً بهدوء نحو البحر الأبيض المتوسط . ذلك هو نهر العاصي احد الأنهار المشهورة في سورية . هذا النهر الذي لا يكاد يُرى أثناء مروره خلال الأراضي الخصبة ، ومع ذلك فانه يواصل رحلته المتعرجة نحو البحر الأبيض المتوسط مخترقاً التلال والجبال ، حارماً السهول الخصبة والأراضي الصحراوية من أن تشفي غليلها من مياهه العذبة . انه يرفض ان يكون مثل غيره من الأنهار ، فهو يتدفق بقوة عند المنحدرات ، ويتباطأ لدى وصوله البحيرات . ولا يجود بمياهه على الأراضي الزراعية والقرى التي تتجمع بالقرب من الخط الأخضر الرفيع الذي يحدد اتجاهه .

أجل انه يختلف عن جميع أنهار الهلال الخصيب في اتجاه سيره ، فبينما تتجه جميعها نحو الجنوب يتجه هو نحو الشمال ، وقد يكون ذلك هو السبب في اطلاق اسم « العاصي » عليه ، ويبلغ طوله حوالي ٥٠٠ كيلومتر ، حافلة كلها بالمظاهر المتناقضة ، الجغرافية والتاريخية . ومثال ذلك ، فان منطقة الغاب ، وهي عبارة عن حوض طويل مكون من رواب اسفنجية وبرك تغص بالأعشاب البرية ، تعتبر أكبر دليل على تناقض هذا النهر مع الأنهار الأخرى التي تحتضنها تلك المنطقة . وفي حين نرى أن معظم مياه الأمطار ، في الشرق الأوسط تتدفق نحو المنخفضات الصحراوية وتتبخر ، نجد أن نهر العاصي يكاد يدمر منطقة الغاب بفيضاناته ،



في الجهة الغربية من منطقة الغاب ، يقضي المزارعون
والقرويون أوقات فراغهم في المقاهي الشعبية المنتشرة
على ضفاف نهر العاصي .



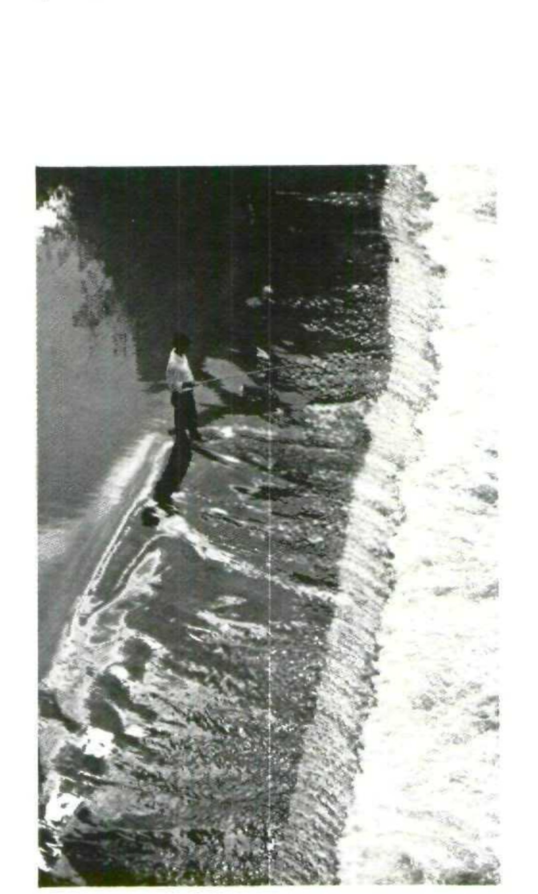
جانب من قنوات الري الحديثة التي شملها مشروع استصلاح الأراضي في سورية .

الجغرافي اليوناني « سترابو » مدينة « أفاميا » القديمة في مطلع القرن الأول الميلادي بأنها مدينة متمامة فوق جبل منيع ، وتقع في سهل مجوف ، يحيط بها نهر العاصي من جميع جهاتها تقريباً ، ثم يمر ببحيرة كبيرة في المنطقة المجاورة للمدينة ليصب في مستنقعات ومروج واسعة ، مما يوفر المراعي للمواشي والجياد . أما اليوم فقد زالت جميع المستنقعات وذلك بفضل مشروع استصلاح الأراضي الذي يشمل بناء السدود وتجفيف المستنقعات ، وانشاء قنوات للري من الاسمنت المسلح ، واجراء التجارب على تربية الاسماك في البحيرة الكبيرة ، ووضع التسهيلات اللازمة لنقل وتسويق الحبوب ، والسكر ، والقطن والمواشي ، مما ستنتجه المزارع والأراضي الزراعية التي يجري استصلاحها والتي تبلغ مساحتها حوالي ٨٥٠٠٠ فدان .

إنّ المظاهر التاريخية المتناقضة تبدو جلية واضحة على طول امتداد نهر العاصي . فمع أن المستنقعات والمداخل الضيقة كانت تحد من اهميته الاستراتيجية ، الا أن

منبع نهر العاصي بين جبال لبنان حيث تبدأ رحلته الى البحر الأبيض المتوسط .

وذلك لأن الحمم البركانية التي تفجرت منذ عصر ما قبل التاريخ ، قد سدت جزءاً من مجرى هذا النهر بالقرب من جسر الشغور في شمال سورية ، وحولت ذلك الوادي إلى سبخة واسعة يستحيل السير فيها . وبسبب ذلك فان مياه الأمطار تملأ ضفاف نهر العاصي حتى يفيض ويغمر ما حوله ، بينما تنساب المياه الجوفية إلى النهر من باطن الأرض لتتسرب الى سطح الأرض وتتجمع تماماً كما تتجمع المياه في اصيص ليس فيه منفذ لخروج المياه الفائضة . ففي فصل الشتاء يتحول الوادي إلى بحيرة تمتد حوالي ٩٠ كيلومتراً نحو الجنوب حتى تصل إلى شيزار بالقرب من حماة . ومن هنا نجد أن تأثير فيضان نهر العاصي على منطقة الغاب ، له وجهان مختلفان ومتناقضان . أولهما اضطرار سكان تلك المنطقة إلى اللجوء إلى سفوح الجبال هرباً من الفيضان ، وثانيهما ان الطمي الذي تجرفه مياه الفيضان يزيد ارض المنطقة خصوبة ، حتى انها كانت تعتبر أكبر مصدر لانتاج القمح منذ عهد الامبراطورية الرومانية . فقد وصف



احـد صيادي السمك يلقي بقصبته في مجرى نهر العاصي بالقرب من مدينة حماه في سورية .

نهر العاصي ، رغم ذلك ، كان مسرحاً للمعارك الحربية منذ ١٥٠٠ عام قبل الميلاد حين اشتبكت القوات المصرية مع قوات الحثيين في كداش ، احد ممرات نهر العاصي ، بالقرب من بحيرة حمص ، وهو ممر حيوي ، وكان الاستيلاء عليه يعني التحكم في التحركات العسكرية عند اتجاهي النهر وداخل الأراضي الخصبة . وفي طرق المواصلات الجبلية الممتدة بين انطاكية وفلسطين . ولهذا ، فقد قام الصليبيون فيما بعد ببناء حصنهم الكبير «كراك دى شوفاليه» بالقرب من ممر كداش الحيوي .

وعلى مر السنين استمرت المنافسة بين الاشوريين والبابليين والفرس للسيطرة على نهر العاصي ، وظلت الحروب قائمة بينهم حتى أخذت قواهم تخور تدريجياً لتفسح الطريق امام الاسكندر الكبير واتباعه من السلوقيين الذين اسهموا في نشر السلام والرخاء على ضفاف نهر العاصي . والسلوقيون هم سلالة اسسها القائد اليوناني سلوقوس وسميت باسمه ، وهو الذي قاد الجيش تحت إمرة الاسكندر ، ثم خلفه



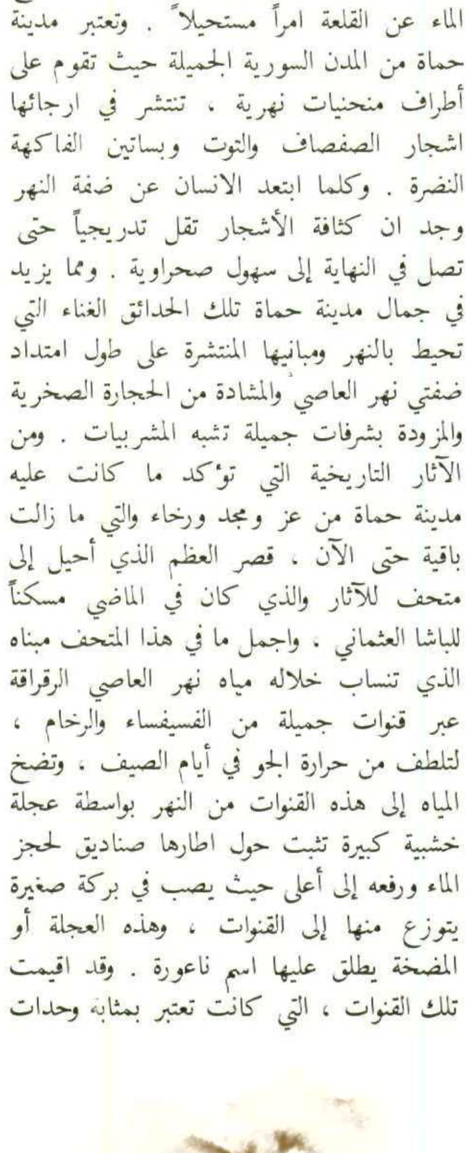
طاحونة للحبوب تديرها مياه نهر العاصي بالقرب من بحيرة حمص .

في الملك على البلاد الممتدة بين الفرات والهندوس ، ثم ضم إلى مملكته آسيا الصغرى بما فيها سورية التي أقام فيها المدن وجلب اليها المكدونيين واسكنهم فيها . وكان نهر العاصي الذي يصل بين أربع مدن رئيسية هامة ، يعتبر العمود الفقري لتلك المملكة ، فكان كل واحد من الميناءين البحريين يتصل بالمدينة بواسطة الطرق النهرية ، فقد أقيمت عند مصب النهر مدينة سلوقيا التي كان يربطها النهر بمدينة انطاكية التي تبعد عنها حوالي ٣٥ ميلاً ، وعلى الساحل في أقصى الجنوب اقيمت مدينة اللاذقية التي كان يربطها طريق بري بمدينة « أمبيا » التي شيدت على ساحل الجبل فوق منطقة الغاب . ولقد كانت سلوقية تعتبر في ذلك العصر ميناء بحرياً حصيناً يوفر الحماية للعاصمة الجديدة انطاكية ولخطوط مواصلاتها البرية والنهرية ، أما اللاذقية فقد كانت على اتصال بالعاصمة العسكرية « أمبيا » عن طريق أودية نهر العاصي وروافده .

وبعد السلوقيين جاء الرومان ، ثم تلاهم المسلمون والصليبيون الذين استمرت الحروب فيما بينهم مدة طويلة من الزمن مما أدى إلى إقامة سلسلة من القلاع والحصون على سفوح الجبال المطلة على نهر العاصي والتي لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا ، كما بقي بعضها قائماً على حاله دون ان تصل اليه يد البلى والدمار ، ومن هذه الحصون ، حصن شاغور البقاع بأعمدته المقـامة فوق قمم الصخور التي ترتفـع آلاف الأقدام عن مستوى الأرض في شمال سورية ، وحصن « البرزي — Burzey » الذي يرتفع عالياً فوق الغاب والذي يعتبر من أروع الحصون ، ويرجع تاريخ بنائه إلى أيام القائد الروماني « بومباي » . وهناك قلعة ابو قبيس ، وهي إحدى القلاع المشرفة على نهر العاصي ، والتي اتخذها المسلمون حصناً منيعاً لهم فيما بعد .

ولعل من أهم القلاع التي أقيمت على نهر العاصي ، قلعة « شيزار » الجميلة التي صمد فيها المسلمون امام غزوات الفرنجة مدة تزيد على نصف قرن . وهناك ظاهرة اخرى من الظواهر المتناقضة التي تميز بها نهر العاصي ، والتي تعتبر مدينة حمص نموذجاً اصلياً لها . فقد عاشت هذه المدينة كولاية مستقلة ترتع في رغد من العيش لحقبة طويلة دامت قرابة الف عام ، حتى في الوقت الذي كان فيه وادي العاصي مسرحاً للقتال بين القوات المصرية وقوات بلاد ما بين النهرين ، ومع ذلك فقد دفعت حمص ثمن عزلتها غالياً ، فحين زحفت القوات الفارسية إلى سورية عن طريق ممر نهر العاصي ، لم يجد الرومانيون أي حليف يمد لهم يد المساعدة . وهكذا فقدت حمص مكانتها ولم تتمكن من استردادها لأنها لم تكن قط جزءاً من أي جهاز سياسي كبير . أما اليوم فقد استعادت حمص رخاءها وازدهارها ، وهي تحتضن اليوم مصفاة للبترول .

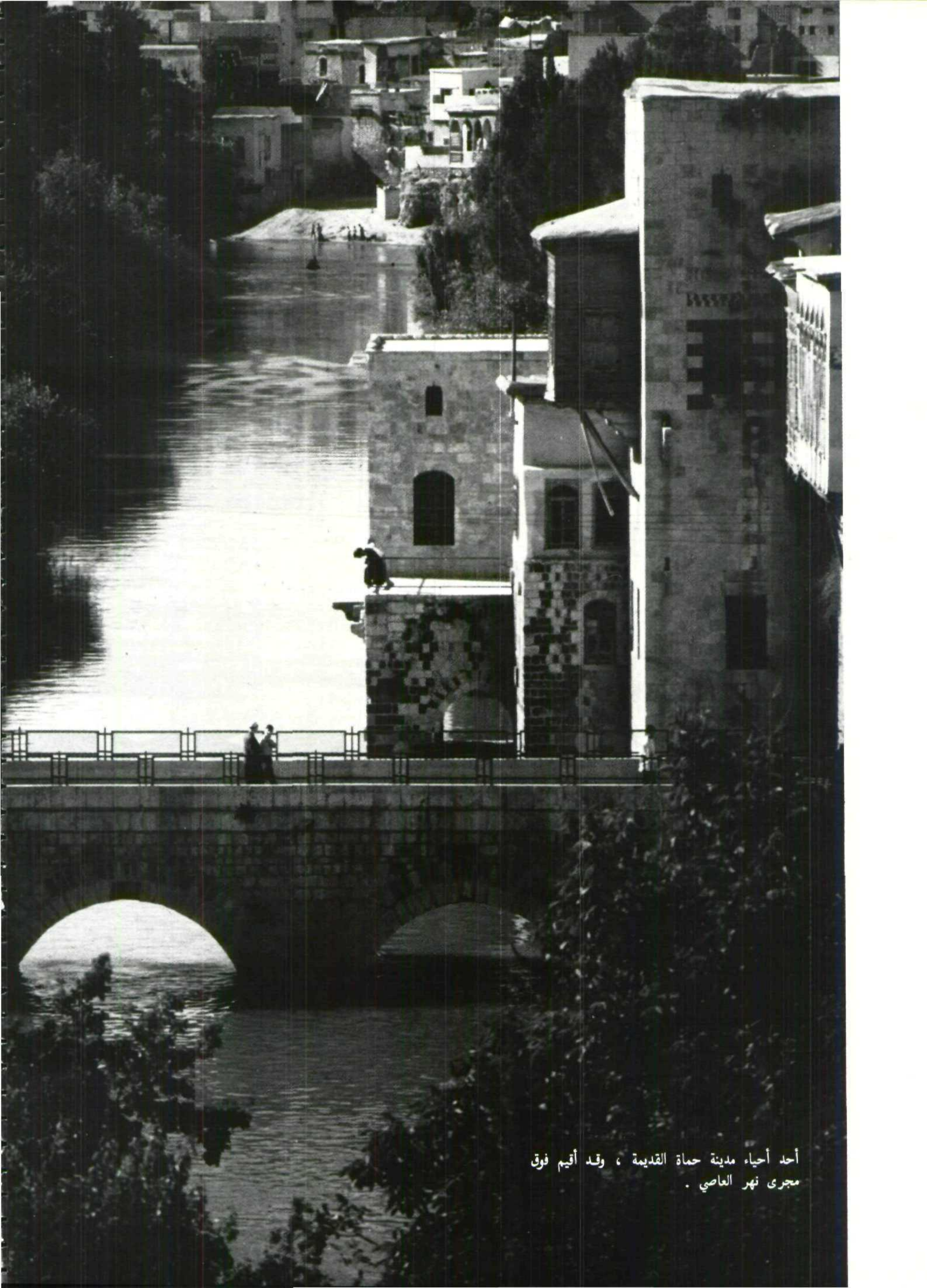
ولما كانت الطريقة التي يسلكها نهر العاصي في جريانه ، هي عزل المدن بعضها عن بعض ، فاننا نستطيع أن ندرك الشيء الكثير عن مدينة حماة احدى المدن الرئيسية في سورية ، التي تتخللها منطقة زراعية



واسعة ، والتي استطاعت الوقوف في وجه الغزوات الصليبية ، وتحديات قوات تيمورلنك فيما بعد ، خصوصاً وان وجود النهر قد جعل قطع الماء عن القلعة امراً مستحيلاً . وتعتبر مدينة حماة من المدن السورية الجميلة حيث تقوم على أطراف منحنيات نهرية ، تنتشر في ارجائها اشجار الصفصاف والتوت وبساتين الفاكهة النضرة . وكلما ابتعد الانسان عن ضفة النهر وجد ان كثافة الأشجار تقل تدريجياً حتى تصل في النهاية إلى سهول صحراوية . ومما يزيد في جمال مدينة حماة تلك الحدائق الغناء التي تحيط بالنهر ومبانيها المنتشرة على طول امتداد ضفتي نهر العاصي والمشادة من الحجارة الصخرية والمزودة بشرفات جميلة تشبه المشربيات . ومن الآثار التاريخية التي تؤكد ما كانت عليه مدينة حماة من عز ومجد ورخاء والتي ما زالت باقية حتى الآن ، قصر العظم الذي أحيل إلى متحف للآثار والذي كان في الماضي مسكناً للباشا العثماني . واجمل ما في هذا المتحف مبناه الذي تنساب خلاله مياه نهر العاصي الرقراقة عبر قنوات جميلة من الفسيفساء والرخام ، لتلطف من حرارة الجو في أيام الصيف ، وتضخ المياه إلى هذه القنوات من النهر بواسطة عجلة خشبية كبيرة تثبت حول اطارها صناديق لحجز الماء ورفعه إلى أعلى حيث يصب في بركة صغيرة يتوزع منها إلى القنوات ، وهذه العجلة أو المضخة يطلق عليها اسم ناعورة . وقد اقيمت تلك القنوات ، التي كانت تعتبر بمثابة وحدات



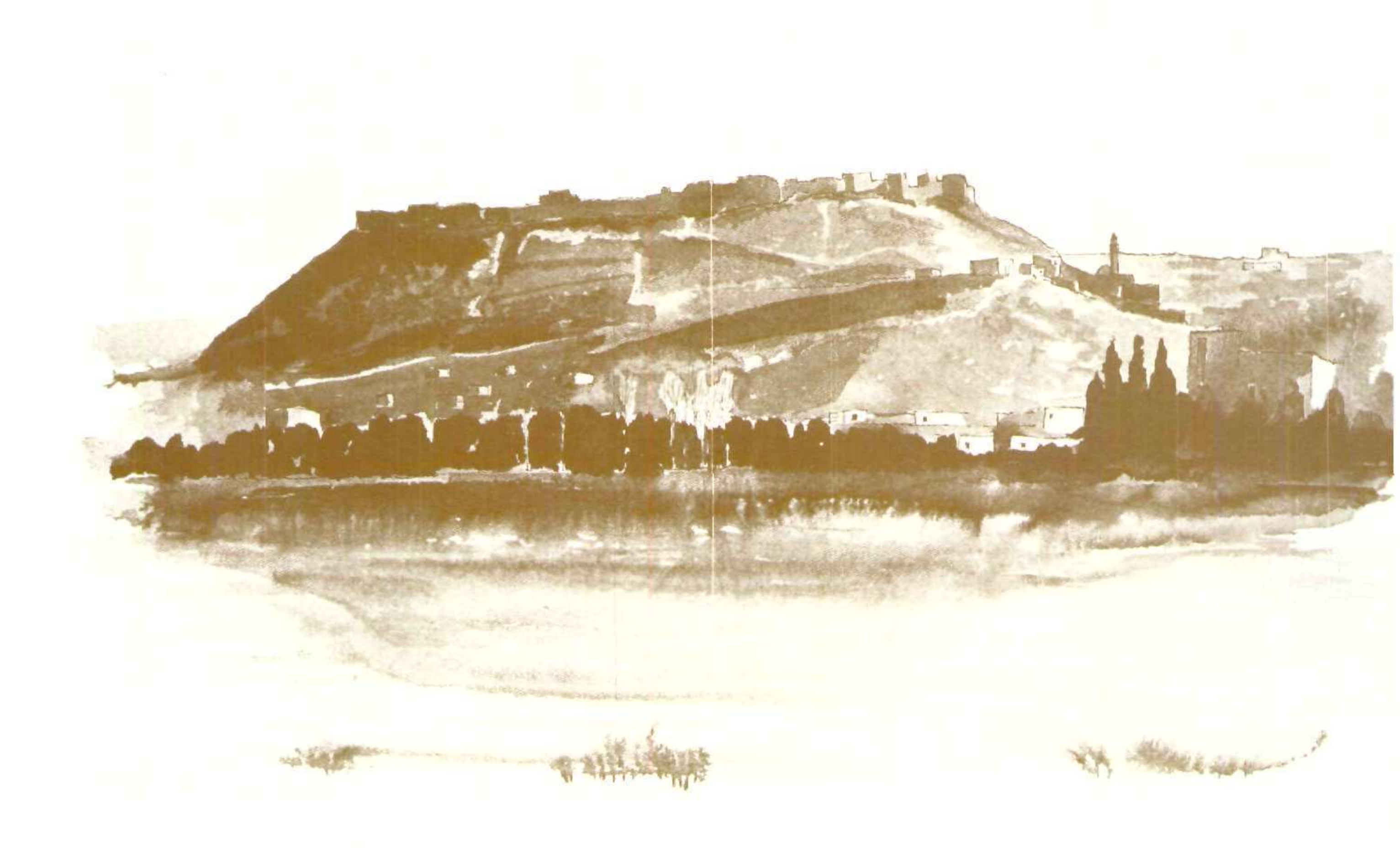
حصن « شيزار » الذي يشرف على مجرى نهر العاصي ، والذي كان يتحكم في حركـة التنقل ويسيطر على مرور القوات المعادية سيطرة تامة .



أحد أحياء مدينة حماة القديمة ، وقد أقيم فوق
مجرى نهر العاصي .

بعض الآثار التاريخية المتبقية من مدينة أفاميا الأثرية .

يستعمل المزارعون القوارب الصغيرة لعبور نهر العاصي في شمال سورية . تصوير : نك ويلر



المدينة الحصينة المعروفة بقلعة المدق ، تطل شامخة على مستنقع الغاب الذي تم استصلاحه مؤخراً .

لتبريد الهواء ، في مواقع استراتيجية بحيث تتسرب اليها أشعة الشمس من خلال الواح زجاجية ملونة قد ثبتت في وسط قبة البيت ، لترسل الواناً مختلفة جميلة تتراقص على صفحات الماء ، كما أقيمت في وسط كل غرفة نافورة جميلة تتناثر منها قطرات ماء لؤلؤية محدثة بذلك ايقاعات جميلة .

ولما كانت مياه نهر العاصي تتدفق خلال ممرات ضيقة ، فقد انتشرت النواعير بشكل مميز على طول امتداد النهر ، لري المزارع والحقول . وما هذا الا دليل آخر على تسميه هذا النهر بالعاصي نظراً لأن مياهه لا تصل إلى المزارع الا بواسطة هذه النواعير التي يكثر وجودها في منطقة حماة .

ولكن نهر العاصي كان يتخذ شكلاً آخر بالقرب من مدينة انطاكية ، يختلف عن تلك الممرات الضيقة التي كان ينساب فيها لدى مروره بالمدن والقرى الأخرى . فقد كان يبلغ اتساعه بالقرب من انطاكية حوالي ١٢٠ قدماً ، وكان يشكل جزيرة تشبه حبة الكمثرى . وبعد أن يلتف حول هذه الجزيرة يواصل تدفقه نحو مدينة انطاكية ماراً بالبوابة الشمالية التي بناها المصريون من صخر الغرانيت والتي اضفت على تلك المدينة جمالاً أخاذاً .

وبما يذكر أن مدينة انطاكية تبعد حوالي ٣٥ ميلاً عن مصب نهر العاصي وانها تقع في وسط سهل « عموك — Amuk » الخصيب . وقد كانت قلعة حصينة ازدهرت أيام الحكم الروماني وعم فيها الرخاء والثراء حتى انهـــا أصبحت تنافس مدينتي رومـــا والاسكندرية . هذا وقد اكتشف الرومان ان احد أسباب الازدهار الذي نعمت به مدينة مدينة انطاكية هو نهر العاصي ، لذلك قاموا بانشاء ميناء جديد في مدينة سلوقيا التي تبعد أربعة أميال عن المصب الرئيسي للنهر ، كما أقاموا هناك احواضاً للسفن وبيوتاً على جانب كبير من الأبهة والجمال . هذا بالاضافة إلى قناة صخرية اشادوها على منحنى النهر لوقاية ضفتيه من الانهيار . وبما ان السيول الجارفة التي تتدفق من الجبال ، كانت تهدد بردم الميناء بالطمي والحجارة ، فقد شق الرومان خندقاً كبيراً بين الصخور يبلغ طوله حوالي ميل واحد وعمقه اربعين قدماً ، وذلك لتحويل اتجاه السيول المتدفقة . ولم يكن خط مدينة انطاكية افضل من غيرها من المدن الأخرى اذ انها لم تسلم من الغزوات المتتالية التي تعرضت لها المدن السورية بين الحين والحين . كما اصيبت بنكبات مفجعة خلال حكم الملك « جوستانيان » الذي دام حوالي ١٥ عاماً . فقد شب فيها حريق هائل اتى على معظم ابنيتها ، وتعرضت للنهب من قبل الفرس . ولوباء الطاعون ولهزتين ارضيتين كانت احداهما عنيفة جداً حيث أسفرت عن تقويض جدران سور المدينة والقت بها في نهر العاصي فتعطلت الملاحة في النهر لعدة قرون .

وبعد ، هذه نبذه سريعة عن نهر العاصي الذي ينبع من جبال لبنان ويصب في البحر الأبيض بالقرب من انطاكية في تركيا والذي شهد عبر التاريخ العديد من الغزوات والحروب الطاحنة .

هذا النهر الذي تحدى الطبيعة وتمرد على كل من وقف في طريقه وأبى الا أن يسير باتجاه مغاير لجميع الأنهار الأخرى ، فضن بمياهه على الحدائق والمزارع والبساتين . لقد تمرد وتمادى في تمرده ، وعصا وتمادى في عصيانه حتى استحق ان يطلق عليه اسم « العاصي » ●

اعداد : زكريا خليل البنا

أخبار الكتب

* ثلاثة معاجم جديدة متخصصة صدرت أخيراً ، هي : « معجم بني امية » وقد استخرج مادته من كتاب « تاريخ دمشق » لابن عساكر وزاد فيه الدكتور صلاح الدين المنجد ، ونشرته دار الكتاب الجديد في بيروت ، و « معجم النحو » للأستاذ عبد الغني الدقر وقد نشر باشراف السيد أحمد عبيد عن مطبعة محمد هاشم الكتبي بدمشق ، و « معجم مصطلحات الصناعات النسجية » وقد صنفه المهندسان عبد المنعم صبري ورضا صالح شرف ، وقدم له الدكتور مهندس حسن مرعي وأشرف عليه الدكتور مهندس أنور محمود عبد الواحد وصدر عن دار النشر في لا يبزج بالمانيا بالاشتراك مع مؤسسة الأهرام باللغات العربية والانكليزية والفرنسية والألمانية .

* ومن كتب المراجع صدر كتاب « المنتخب من مخطوطات المدينة المنورة » من وضع الأستاذ عمر رضا كحالة ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق .

* يواصل مجمع اللغة العربية بدمشق نشر كتب التراث بعد تحقيقها واخراجها في شكل علمي موثق . ومن أحدث الكتب التي اصدرها « كتاب أدب القضاء ، وهو الدرر المنظومات في الأقضية والحكومات » لقاضي شهاب الدين ابي اسحاق ابراهيم بن عبدالله المعروف بابن أبي الدم الحموي الشافعي ، وقد حققه الدكتور محمد مصطفى الزحيلي . و « الأمثال » لأبي عكرمة الضبي وقد حققه الدكتور رمظان عبد التواب ، و « كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها» لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ، وقد صدر في جزءين من تحقيق الدكتور محي الدين رمضان ، و« تحقيق المراد في أن النهي يقتضي الفساد » للحافظ صلاح الدين خليل ابن كيكلدي العلائي وقد حققه الأستاذ ابراهيم محمد السلقيني . كما صدر من كتب التراث كتاب « تاريخ داريا » للخولاني ، وقد حققه الأستاذ الأفغاني وطبع في بيروت ، والقسم الأول من كتاب « الأوائل » لأبي هلال العسكري وقد حققه الاستاذان محمد المصري ووليد قصاب وطبع في دمشق .

* من أنفس الكتب القانونية التي صدرت أخيراً كتاب « تاريخ القضاء الاداري ونظام مجلس الدولة في سورية » للدكتور عدنان الخطيب الرئيس السابق لمجلس الدولة السوري ونائب رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق والعضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة . والكتاب يتناول بالدراسة المقارنة القواعد الادارية في الفقه الاسلامي مع مقابلتها في التشريعات الأوربية والأسس التي قام عليها النظام الاداري في سورية وفي لبنان والعراق ومصر وفي أيام الدولة العثمانية ، ثم تناول المؤلف قواعد الشورى والافتاء ، وأورد ثبتا بنصوص دستورية وادارية لم يسبق نشرها ، فجاء كتابه موسوعة في الفقه الاداري وتطبيقاته وتاريخه وتطوره وأنظمته تتميز ، فضلا عن قيمتها القانونية ، بقيمتها الأدبية من حيث علو البيان وعذوبة الألفاظ وسلاسة الأسلوب .

وقد صدر هذا الكتاب عن معهد البحوث والدراسات العربية ، وهو خامس كتاب يصدره هذا المعهد للاستاذ الخطيب .

* أصدرت مجلة « جوهر الاسلام » التي تصدر في تونس عدداً خاصاً بمناسبة ذكرى مؤسس المجلة المرحوم الشيخ الحبيب المستاوي ، شارك في تحريره عدد من الأدباء والعلماء العرب . كما أصدرت مجلة « الكتاب » التي ينشرها اتحاد الكتاب العراقيين عدداً خاصاً ضخماً وقفته على الذكرى الألفية لميلاد ابن زيدون واسهم في تحريره نثراً وشعراً أساتذة الأدب في كل من المشرق العربي والمغرب العربي .

* ومن السير التي خصها الباحثون بدراسات جديدة سيرة « ظافر الحداد » وهو شاعر مصري من العصر الفاطمي وقد تناولها بالتسجيل والعرض الأستاذ الدكتور حسين نصار وظهرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وسيرة « الشبيبي شاعراً » وهي دراسة عن شاعر العراق الكبير محمد رضا الشبيبي أعدها الاستاذ قصي سالم علوان ونشرتها وزارة الاعلام العراقية .

* من الكتب الدينية الجديدة ظهرت هذه الطائفة « الاسلام والعلم » للدكتور عبد الحليم محمود وقد نشرته ادارة الشؤون الاسلامية بالشارقة ، و « الايمان بالله» للاستاذ محمد حسن الحمصي ونشر دار الكتاب الحديث بدمشق ، و « المجتمع الاسلامي » للدكتور مصطفى عبدالواحد ونشر مكتبة المتنبي بالقاهرة ، و « محمد رسول الاسلام والسلام » للدكتور نصر فريد واصل ونشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، و « من هدى الجمعة » للأستاذ كمال الدين الطائي ونشر مطبعة سلمان الأعظمي ببغداد ، و « من خير البشر » للأستاذ عبد التواب يوسف ونشر دار الشعب ، و « الاسلام قوة الغد العالمية » لباول شمتز وترجمة الدكتور محمد عبد الغني شامة وطبع القاهرة ، و « التشريع بين الفكرين الاسلامي والدستوري» للأستاذ هاني أحمد الدرديري ونشر الهيئة المصرية ، و« الايمان في القرآن الكريم » للأستاذ محمد رجاء حنفي عبد المتجلي ونشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، و « ضيف الرسول عليه السلام » للمرحوم ابراهيم رمزي وقد حققه الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد وصدر عن الهيئة المصرية .

* دراسة عن « الشعر العربي والذوق المعاصر » صدرت للأديب الطبيب الدكتور محمد كامل حسين ونشرت في سلسلة كتاب الاذاعة والتلفزيون .

* ومن الدواوين الجديدة التي صدرت اخيراً « الى . . » . للشاعرة روحية القليني ونشر الهيئة المصرية ، و « شاعر الأعطار والأنغام » وهو مجموعة قصائد لشعراء من العالم العربي مهداة الى الشاعر العراقي عبد الخالق فريد إطراء لشاعريته وثناء على دواوينه المختلفة ، وقد صدر الديوان عن دار الزهراء بالقاهرة ، و « مذكرات عروة بن الورد » للاستاذ عبد الأمير الحصيري ونشر دار الحرية للطباعة ببغداد .

* صدرت عن وزارة الاعلام العراقية مجموعة من الكتب التي تتناول آثار الفارابي من جوانبها المختلفة وذلك بمناسبة الاحتفال بذكراه ، منها « الفارابي في المراجع العربية » للدكتور حسين علي محفوظ ، و « قياسات النغم عند الفارابي من خلال كتاب الموسيقى الكبير » للدكتور عادل البكري والأستاذ سالم حسين ، و « الفارابي وعلم اللغة » للدكتور ابراهيم السامرائي ، و « الفارابي عربي الموطن والثقافة » للدكتور ناجي معروف ، و« نظرية الفارابي في الموسيقى » للأستاذ أديب نايف دياب ، و «مؤلفات الفارابي» للدكتورين حسين علي محفوظ وجعفر آل ياسين ، و« أثر الفارابي في الفلسفة الأندلسية » للدكتور ماجد فخري ، و« مكانة الفارابي في تاريخ نظرية المحاكاة في الشعر » للأستاذ عبد الجبار داود البصري ، و « المنهج عند الفارابي » للدكتور عثمان عيسى شاهين .

* صدرت للأديب القاص الأستاذ محمود البدوي ، طبعة جديدة من مجموعته الشهيرة « الأعرج في الميناء » ، وقد نشرتها الهيئة المصرية .

* مجموعة من الخواطر والصور عنوانها « بلا جناح » صدرت للدكتور عارف العارف عن دار الفتح .

من حصاد الكتب

ثقافة الناقد الأدبي



تأليف: الدكتور محمد النويهي - عرض وتعليق: الاستاذ عبدالله عبدالرحمن الجعيش

هذا كتاب رائد ، لا أذكر انني قرأت في نقدنا الحديث مثله عمقاً ونفعاً وجدة آراء ، والغريب ان الهجوم على الكتاب ومؤلفه شديد . فقد قرأت الكتاب من سنين فاعجبت به أيما اعجاب ، ثم كررته وصرت اعود اليه باستمرار ، وكان من نتيجة ذلك أن سألت نفسي لماذا لم يحضنا اساتذة النقد والأدب ، أيام الدراسة ، على قراءة هذا الكتاب الرائد ، واكتشفت انهم لم يذكروه ولا مجرد ذكر ، على كثرة ما ذكروا لنا من الكتب الحديثة . واشتد استغرابي لهذا الأمر حتى حملني إلى مساءلتهم واحداً واحداً ، فقال احدهم ، وهو من رواد النقد في العالم العربي ، ان مؤلفه مغرور بآرائه ، وان آراءه قليلة النفع . .

وسألت أستاذنا في النقد في السنتين الأخيرتين من الكلية عن الكتاب المذكور فأجاب :

— قرأته ولم استفد منه !

وهذا استاذي الفاضل الدكتور محمد رجب بيومي يهجم على الكتاب هجوماً عنيفاً في مقال له في العدد الخامس من مجلة « كلية اللغة العربية » ، ويتحدى صاحبه أن يأتيَ برأي واحد أصيل ، ويتهمه بأنه عالة على العقاد والمازني وطه حسين .

ومع احترامي الكامل لاساتذة النقد والأدب واعتقادي بأن لهم مبرراتهم الموضوعية فاني اشهد بأنني لم أقرأ في كتب النقد العربي بعامة كتاباً انفع من هذا الكتاب ، ولم أجد آراء أصيلة قيمة أكثر مما وجدت في هذا الكتاب ، ولعلي من المدمنين على كتب العقاد والمازني وطه حسين فلم أجد من ملاحظاتهم سوى أن المؤلف شديد على الذين لا يتفقون مع فكرته . . والرائد يُعذَر في شدة هجومه لأنه يريد أن يقنع الناس وأن يلفتهم بشدة ، ولكن ليس إلى الحد الذي يبلغه المؤلف ، ليس إلى حد ان يوصف كلام الذين ورّخوا للأدب العربي بأنه « أشبه بهذيان المحمومين وهراء المخمورين » (ص ٢١) ، وليس إلى حد ان يصف جهود مدرسي دار العلوم بأنها سخافات كما قال في كلامه عن كتاب الدكتور شوقي ضيف « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » قال ان الجديد فيه « أوصاف غريبة واصطلاحات محيّرة تذكرنا بأحكام نسج اصدقائنا مدرسي دار العلوم وصفاء ديباجتهم وجودة سبكهم وباقي سخفاتهم » (ص ٤٧) .

فالحقيقة انما تقرر باسلوب علمي موضوعي ، بعيد عن الثلب والسب . .

ولكن هذه الملاحظة لا تمنعنا من ان نعد الكتاب رائداً في النقد الأدبي وفي دراسة الأدب وأن قيمته ستزيد مع الأيام . .

ركائز الكتاب

يستند الكتاب إلى ركائز واضحة هي :

* عدم فهم الغالبية العظمى من مثقفينا للأدب ، باستثناء ثلاثة نقاد هم العقاد والمازني والدكتور طه حسين ، وهذا يجعل المؤلف يحمل حملة ضارية على كتب تاريخ الأدب العربي التي ألفها الزيات والسباعي وعطية ، وغيرهم ، ويتهمهم باللهجة الخطابية التي لا تعطيك شيئاً ، وبالغموض واللجوء إلى مصطلحات لا يكاد الطلاب ودارسو الأدب يلمسون منها شيئاً ، مثل وصفهم الالفاظ بالجزالة او الرقة او الخشونة ، والمعاني بأنها مقاربة او متجهمة ، والعبارة بأنها حسنة الديباجة ، او فخمة او جزلة او شديدة الاسر . . الخ . والاسلوب عموماً بأنه رشيق أنيق أوله رونق وكأن الماء يجري فيه او مداخلة بعض الفاظه في بعض . . الخ . انظر (ص ٢٠ — ص ٢١) وغيرهما ، وتلك اوصاف تدل على انهم لم يفهموا الادب او كما يقول « . . . فهم ما يزيدوننا

فهماً بالشعر العربي ولا استجلاء لميزاته ولا تبصراً بجماله ولا تذوقاً لمتعته الفنية بل هم كلما زادوا من هذا الكلام زادونا خبالا » (ص ٢٣) كذلك يتهمهم بتكرار بعضهم لبعض ، أو سرقتهم من بعضهم على الأصح ، ويدعم رأيه بالأمثلة والشواهد المقنعة (ص ١٢ — ص ١٤) ويلقي على هؤلاء المؤلفين مسئولية كره الشباب العربي لأدبهم وعدم استمتاعهم به ، مبرّياً مدرسي الثانوية لأن المدرس في الأصل مجرد منفذ ، وانما يلام واضع المنهج ومؤلف الكتاب . .

ويعجب ان تلك الكتب تُقرّر مصادر للأدب في الجامعات ، في كليات الآداب ، ويتخرج الطلبة وهم لا يعرفون المصادر الاصيلة ، وبالتالي لا يعرفون الادب على وجهه الصحيح ولا تكون لهم شخصيات ، بل يتوارون وراء اولئك المؤلفين .

ه ان الادب هو الثمرة العليا لتجارب الحياة الانسانية فيجب وصله بالحياة ، والاستعانة بكل منهما على فهم الآخر . ومن المضحك ألا يعرف الشباب عن الادب الا التشبيه والاستعارة ونوع الاستفهام ونحو هذا من القواعد النظرية ، بل ان من المضحك أيضاً ان يمسخ المؤلفون والنقاد والمدرسون نظريات النقد الغربي الحديث فيأخذوها جسداً بلا روح ويُلبِسوها الأدب العربي وهي لم تفصل له ، فيرددوا مع طلابهم العاطفة والأسلوب والخيال والابتكار والمدرسة الادبية ونحو ذلك ، وهم معزولون عن الحياة . وانطلاقاً من هذا يرى الدكتور النويهي ان الوسيلة السوية لتذوق قصيدة الشعر مثلاً إنما هي تذكرّ التجارب الشخصية المشابهة ، التي عاشها اصحابها في صميم الحياة ، حتى يدركوا موقف الشاعر ويتعاطفوا معه ، ويعلموا ان الأدب قطعة من الحياة ، بل هو زبدة الحياة ، ويحقق هذه الوسيلة اثناء تطبيقه لبعض القصائد ، فيذكر تجاربه الشخصية هو ، ويلح على القارىء دائماً بقوله : تذكرّ تجاربك المماثلة . . اطرح كتابي وتذكرّ تجاربك المماثلة . ويقف امام كل جزئية من القصيدة ليحلل معناها الحي الذي له صدى في نفس كل انسان وينصح للقارىء ان يتذكر تجاربه المشابهة في كل جزئية .

ه ان الثقافة العميقة هي الشرط الأساسي في الناقد بعد الذوق السليم ، والثقافة العميقة عند الدكتور النويهي ليست مجرد كلمة تقال كما يفعل أكثر النقاد حين يعددون شروط الناقد ، بل هو يحدد لنا الأسس الضرورية جداً لهذه الثقافة ، وهي تتمثل في عدة أمور من ابرزها اتقان لغة غربية واحدة على الاقل ، اتقاناً تاماً يمكّن من تذوق ادبها وفهمه ودراسته دراسة عميقة ، ويلاحظ انه يصر على الأدب الغربي لا النقد الغربي وحده كما يفعل سائر النقاد في نظره باستثناء العقاد والمازني وطه حسين ، ويرى ان اقل ما يلزم الناقد ، دراسة عصر أدبي غربي واحد ، وشاعرين ، وينصح لهم ان لا يكون هـذا العصر هو العصر الحـديث في بداية امرهم لأنه شديد التعقيد والتجدّد ، كما ينصح لهم الا يستحضروا هدفهم من تلك الدراسة ، والا يعملوا على مقارنة ما يدرسون من الأدب الغربي بما يعرفون عن الأدب العربي ، ويحدد دراسة العصر بانها الحصول على صورة موحّدة له ، تجمع كل ظواهره . ومن ابرز معالم ثقافة الناقد عند الدكتور النويهي التعمق في دراسة العلوم المختلفة ، وبخاصة ما يتصل منها بعلم النفس والوراثة ونحو ذلك مما يمس الانسان مباشرة ، ذلك بأننا لن نفهم الأدب حتى نفهم حياة صاحبه ، ونفسه ، ودوافعه . وقد اختار لنا شخصية معينة في الأدب هي شخصية ابن الرومي لتكون نموذجاً تطبيقياً لبيان أهمية الثقافة العلمية ولزومها للناقد ، ويخص ابن الرومي بالاختيار لأنه شخصية شديدة التعقيد اولاً ، ولأنه ثانياً قد دُرس دراسة نقدية من قبل العقاد والمازني وهما مع طه حسين ، النقاد الوحيدون الذين يقتنع المؤلف بثقافتهم . وفي دراسته لابن الرومي يظهر لنا كثيراً من الحقائق التي أخطأ فيها الناقدان الكبيران ، لتجاهلهما للحقائق العلمية التي تختص بالوراثة وعلم النفس .

ويمهد لدراسته لابن الرومي بتلخيص طويل ولكنه واف دقيق لحقائق العلم حول الوراثة والانحرافات والامزجة (ص ٨٠ — ١٢٨) ، (ص ١٦٥ — ١٩٣) ، ولكنه لا يدعو النقاد إلى اتباعه في عرض حقائق العلم ، وانما يريد ان يفهموها وتكون لهم نوراً تُحَسّ آثاره فيما يدرسون ولا يُرى ، ويبرر اسرافه في عرض حقائق العلم بأنه جاء برأي غريب فكان عليه ان يثبته (ص — ١٦٢) .

ويمتاز الكتاب بميزات هامه ، منها العمق وبعد النظرة والموضوعية ، فالمؤلف عميق واسع في بحثه ، اذا تكلم عن عربية ابن الرومي في شعره رجع إلى تطور الشخصية العربية في التاريخ (ص ٢٦٣ — ٢٧٨) واذا عرض لهجاء ابن الرومي عاد إلى الهجاء كله قبل ابن الرومي (ص ٣٢٢ — ٣٢٦) . واذا عرض لقصيدة رثاء أفاض في بيان شعر الرثاء الصادق الجيد (ص ٣٣٨ — ٣٤٥) .

وأما بعد النظرة فيتجلى في دعوته إلى ترك البحث عن أصول النقد الأدبي العربي لاننا لم نصل بعد الى هذا الطور ولا يحسب اننا سنصل اليه في أقل من قرن آخر كامل يظل فيها نقدنا اجتهاداً (ص — ٦٠) وذلك في نظري حق ، فأكثر ما لدينا من اصول ممسوخ من النقد الغربي . وموضوعيته تتجلى في دقته وفي اصدار الأحكام ومطالبة الآخرين بذلك فهو ينكر على الناقد تلك الأحكام المعممة ، كقول العقاد في ابن الرومي :

« وبراعته في السخر يندر ان يدانيها فحول الساخرين في المشرق والمغرب » (ص— ٢٥٨) او قوله : « قلّ ان ترى في وصف شاعر من شعراء العالم اجمع نظيراً لهذه الحاسة . . » (ص ٢٥٨) ثم قوله : « ويعرض لك تلك الصور الهزلية التي لا مثيل لها في شعر شاعر واحد من شعراء العالم كله . . » (ص ٢٥٩) .

ونصوص نحو هذه يعمّ بها العقاد كافة الأمم وكافة الشعراء فيستنكر النويهي ذلك ويعتبره كلاماً لا يشبه كلام النقاد بل هو اقرب إلى صبي المدارس الذي يندفع في حرارة وجهد معاً الى القاء التقريرات العالمية (ص ٢٥٩) .

ونتمنى لو تخلص النقاد من الاحكام العامة حقاً ، ولكن ذلك صعب او نادر ، فالنويهي نفسه يقول عن العقاد : « انه ارتكب جميع الاخطاء التي نستطيع ان نتصور وقوع ناقد ادبي فيها » (ص — ٢٥٧) ويقول في (ص — ٢٧٦) : « بشار شاعر وصلت شخصيته الفردية إلى حد التمام ، وما يزيد عنه ابن الرومي في تميز شخصيته ذره »

وهذه امثلة عابرة يظهر فيها التعميم الذي اخذه على العقاد ، ولكن الخطأ لا يبرر بالخطأ على أي حال ، فملاحظاته جيدة وواضحة ، والنقد العربي مليء بمثل تلك الأخطاء .

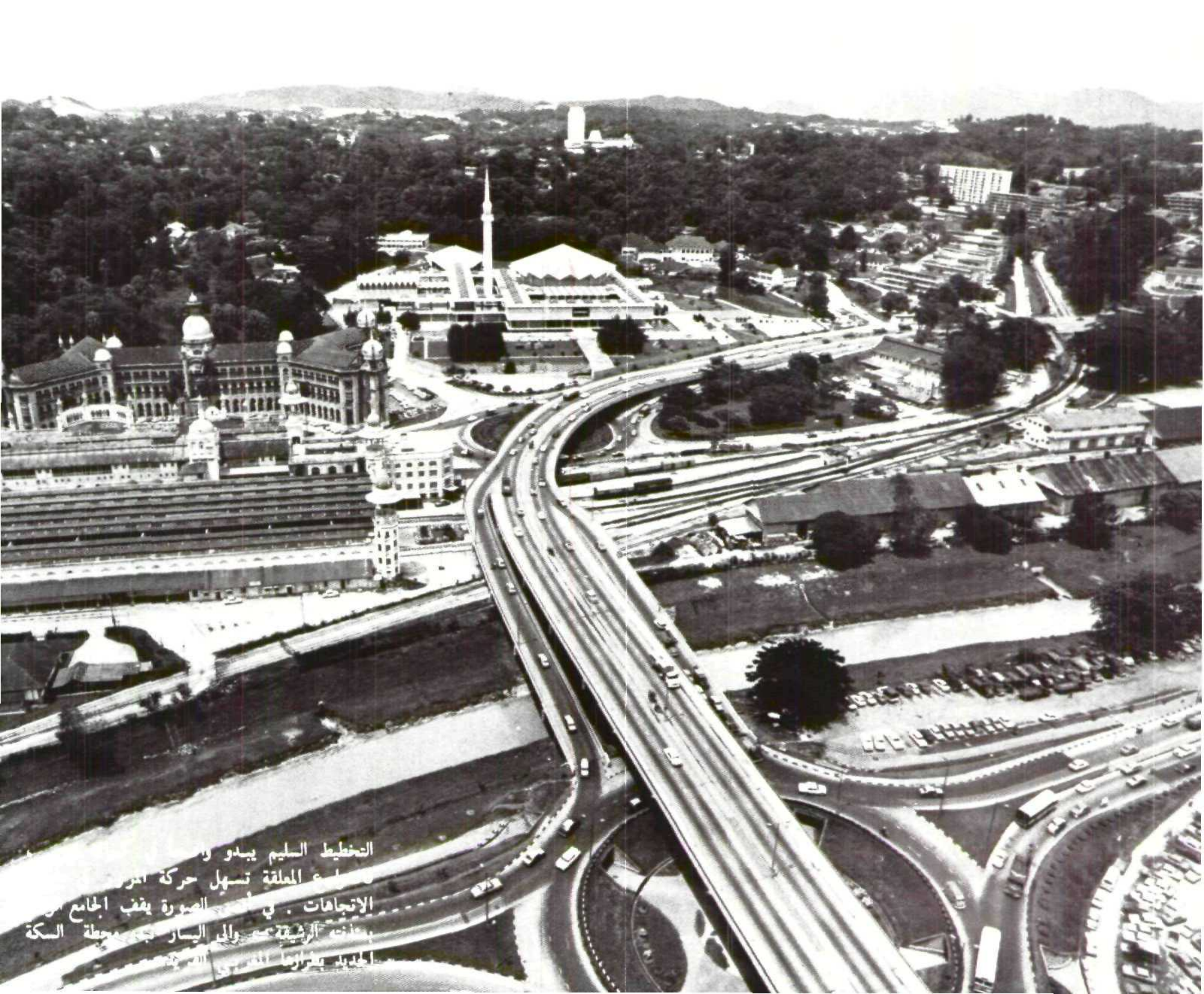
وفي الكتاب فوائد لا يحيط بها مقال عابر ولا يستوفيها الا من يقرأ الكتاب مرة فمرة بتأن وصبر ، ولسوف يخرج قارئه بصورة جديدة عن الأدب وعن النقد ، ولسوف يخرج برغبة شديدة في التهام الثقافات المختلفة ، وكفى بذلك ميزة لا تُدْرك ●

عبدالله عبدالرحمن الجعيثن
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية — الرياض

كوالالمبور..

عاصمة عصرية تجمع بين جمال الشرق وحضارة الغرب

من بلدان الشرق الأقصى الت انتشر فيها نور الاسلام بلاد ماليزيا ، ذات الروابي الخضر والأرض الطمية الخصبة ، والميا الغزيرة ، والادغال الكثيفة والأشجار النادرة ، والشواطي الرملية الذهبية . رزحت هذ البلاد ردحا طويلا تحت



التخطيط السليم يبدو [illegible] [illegible] المعلقة تسهل حركة [illegible] الاتجاهات . في [illegible] الصورة يقف الجامع [illegible] [illegible] الرشيقة [illegible] وإلى اليسار [illegible] محطة السكة الحديد بطرازها [illegible]

طأة السّيطرة الخارجية نظراً ثرواتها الطبيعيّة الهائلة مركزها التجاري المرموق بين شبه القارة الهندية الصّين . ولم تنعم هذه البلاد بالاستقرار والرخاء حتى قام الاتحاد الماليزي عام ١٩٦٣، راحت منذ ذلك الحين تقفز قفزات واسعة نحو التقدم والازدهار حتى أصبحت من أغنى بلدان الشرق الأقصى وأكثرها نشاطاً ، وأوسعها عمراناً ، وتنعكس مظاهر هذا التقدّم بجلاء على العاصمة كوالالمبور.

تقع ماليزيا بين مضيق ملقة وبحر الصين الجنوبي ، وهي تحتل الجزء الجنوبي من شبه جزيرة الملايو في جنوب شرق آسيا والجزء الشمالي من جزيرة بورنيو . وتعد ماليزيا أكبر منتج للمطاط والقصدير في العالم ، وتمتد في وسطها من الشمال الى الجنوب سلسلة من الجبال طولها نحو ٥٠٠ كيلومتر ، وهي مكسوة بالغابات والادغال التي يستفاد من اخشابها في أغراض متعددة . وتجري في بلاد ماليزيا انهار كثيرة اكبرها نهر « باهانج » وطوله ٤٠٠ كيلومتر ، ونهر « بيراك » في الغرب وطوله نحو ٣٢٠ كيلومتراً . ويتألف الشريط الساحلي الغربي المتاخم لمضيق ملقة من سهول طمبية خصبة تزرع أرزاً ، وتحتوي على كميات ضخمة من ركاز القصدير ، ومن بقاع شاسعة من الرمال الناعمة الذهبية ، وكثير من المستنقعات والاهوار عند مصبات الانهار ، تنمو فيها أشجار « المنغروف » ، وهي نوع من الأشجار الاستوائية تنبثق من أغصانها جذور جديدة تتدلى الى أسفل ثم لا تلبث أن تتوغل في التربة لتنبت منها أشجار جديدة . أما الساحل الشرقي الممتد على طول بحر الصين الجنوبي فيختلف عن الساحل الغربي اختلافاً بيناً ، اذ ان امواج البحر العاتية تضرب الشواطيء بعنف طوال السنة مما يجعل نمو أشجار « المنغروف » المألوفة في الغرب محدوداً جداً . ومع ذلك فان الرمال الذهبية الناعمة الممتدة على طول الساحل والتي تتخللها الجروف الصخرية التي تنتصب وراءها أشجار « الكازورينا » بقدودها الهيفاء تشكل مناظر جذابة تستهوي الافئدة . هذا وتنتشر حول سواحل ماليزيا جزر كثيرة تحيط بعضها رفوف مرجانية جميلة . ولما كانت الأمطار تهطل فيها بغزارة فان النباتات والحشائش والزهور النادرة تنمو بشكل غريب يثير الدهشة ، فهي تقتتل على الظهور ، على حد تعبير الأستاذ الأديب عبد العزيز الرفاعي ، الذي زار ماليزيا وقضى فيها خمسة (١) ايام كانت ثمرتها كتيباً أنيقاً ضمنه انطباعاته

لا يزال الطراز المعماري المغربي الذي يشاهده الزائر في بعض أحياء كوالا لمبور مثاراً للاعجاب .

(١) « خمسة أيام في ماليزيا » للأستاذ عبد العزيز الرفاعي .



جانب من الحرم الجامعي التابع لجامعة الملايو التي تضم كليات عديدة منها الآداب والعلوم والهندسة والزراعة والطب .

الشخصية عن ارضها الخضراء . ومن بين هذه النباتات « الاوركيد » ذو اللون الارجواني ، و « السرخس » و « الأزويد » . ومن الأشجار التي يكثر نموها في ماليزيا النارجيل (جوز الهند) التي تتميز بقاماتها الفارعة وفوائدها الجمة ، فهي كالنخيل في المملكة العربية السعودية . كما تكثر فيها أشجار المطاط ، والروطـــان (أسل الهنـــد) الذي يعتبر قوام صناعة الأثاث الفاخر في ماليزيا لمتانته ومرونته . والخيزران الذي تصنع منه السلال وتبنى منه الأكواخ الريفية الجميلة . والى جانب ذلك تنمو فيها انواع عديدة من أشجار الفاكهة الغريبة في شكلها ولونها ومذاقها كالرامبوتان ، والدوريان ، والأناناس ، والماتكوشن ، والموز ، والمنقيس .

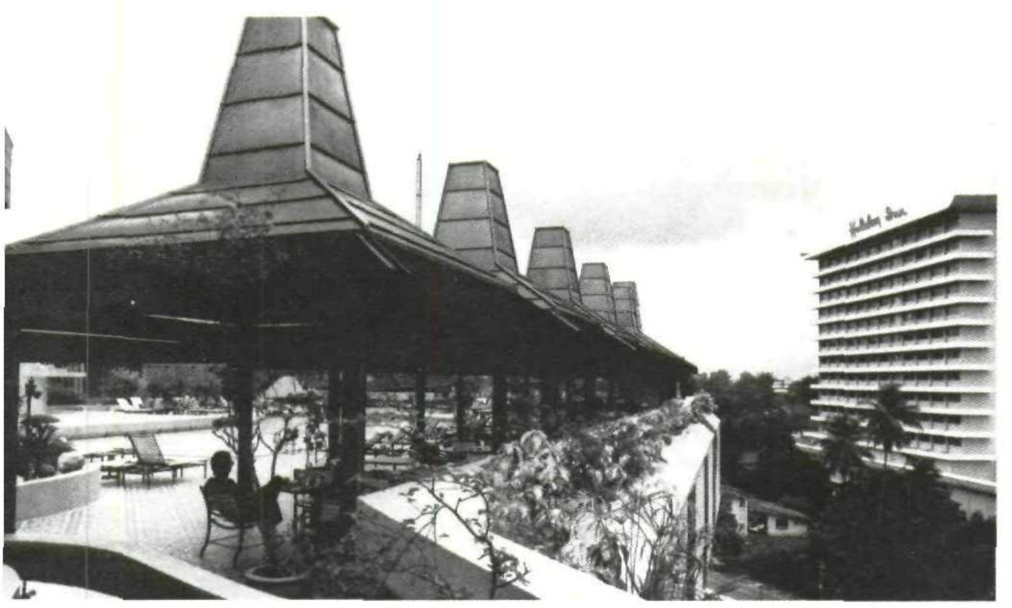
لمحات من تاريخ ماليزيا

يكتنف تاريخ شبه جزيرة الملايو كثير من الغموض ، وكل ما يعرف عنها أنها كانت قديماً نهباً لمطامع جيرانها الأقوياء ، مرد ذلك الى ما كانت تتمتع به من مركز تجاري هام ، فهي العتبة التي لا غنى للتجارة البحرية بين الهند والصين عن المرور عليها . ولما امتدت الفتوحات الاسلامية الى السند ومشارف الصين ازداد تعامل العرب مع سكان تلك المنطقة ، حتى كان التجار العرب يحرصون على توقيت وصولهم الى الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة مع تحول الرياح الموسمية ، بغية استغلال اتجاهها في رحلاتهم البحرية . وبقيت شبه جزيرة الملايو تعاني حالة من الركود حتى قامت مملكة ملقة في أواسط القرن الرابع عشر فنشطت فيها الحركة التجارية ونعمت بالاستقرار ، واعتنق أهلها الاسلام وراحت تلعب دوراً كبيراً في نشره في ربوع شبه جزيرة الملايو . وقد بلغت هذه المملكة أوج ازدهارها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وتمتعت بشهرة واسعة آنذاك حتى لقد أطلق اسمها على المضيق المتاخم لها ، وحتى على شبه الجزيرة كلها . وأصبح لها شأن كبير في عالم التجارة حينذاك ، الأمر الذي وجه اليها الأنظار باعتبارها مفتاح تجارة الشرق وكان التنافس التجاري الأوروبي قد بلغ أشده . ففي عام ١٥١١م استولى عليها البرتغاليون بقيـــادة « الفونسو دي البوكيرك » الذي حوّل الطريـق التجاري من الخليج العربي والبحر الأحمر الى

طريق رأس الرجاء الصالح . ومع ذلك لم يستطع القضاء على الأسرة الحاكمة ، فقد أسس السلطان « راج كجيل بسر » وهو أول سلطان مسلم حكم ملقة والذي تسمى فيما بعد باسم محمود شاه ، أسس عاصمة جديدة لملقة ، كما أسس ولداه مملكتين لهما في شبه الجزيرة . ثم لم تلبث أن وقعت ملقة في أيدي الهولنديين عام ١٦٤١م الذين حولوا الطريق التجاري البحري عنها ففقدت بذلك أهميتها التجارية وسيطر الهولنديون على معظم أجزاء شبه الجزيرة ، واحتكروا تصدير القصدير ، وبنوا قلاعاً ساحلية ضخمة لحماية الطريق التجاري الجديد . وفي عام ١٧٩٥ استولى عليها البريطانيون بعد أن تنازل عنها الهولنديون لقاء اعطائهم جزيرة سومطرة. وعقب فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م عاد لملقة نشاطها التجاري القديم ، ومع ذلك بقيت شبه الجزيرة مفككة الأوصال حتى وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، فراحت تتجمع في شبه اتحاد فدرالي عام ١٩٤٨م ، وأعلن استقلالها في ١٣ أغسطس ١٩٥٧م . بيد أنها لم تظهر كدولة متماسكة إلا بعد قيام الاتحاد الماليزي في ١٦ سبتمبر ١٩٦٣م . ويضم الاتحاد ثلاث عشرة ولاية بعد أن انسلخت عنها سنغافورة وهي : جوهور ، وكداه ، وكيلانتان ، وملقة ، ونقرى سمبلان ، وباهنج ، وبنانج ، وبيراك ، وبرلس ، وسيلانجور وفيها العاصمة كوالا لمبور ، وترينقانو ، وصباح ، وسراواك . وتقع الولايتان الأخيرتان على الساحل الشمالي لجزيرة بورنيو . ويبلغ عدد سكان الاتحاد الماليزي نحو ١٢ مليوناً يعمل معظمهم في الزراعة والتجارة والتعدين . ومنذ قيام الاتحاد الماليزي أخذت البلاد تنظم مواردها الطبيعية وتبنى اقتصادها على أسس مدروسة نلمس آثاره جلية في معالم العاصمة الحديثة كوالا لمبور التي تعتبر اليوم في مصاف العواصم العصرية المتطورة .



منظر ليلي لأحد الأسواق المركزية في كوالا لمبور ، وفيه تتوفر مختلف السلع الاستهلاكية .



السواح ورجال الأعمال يجدون في فنادق كوالا لمبور الفخمة كل ما تتطلبه الحياة العصرية .

مستنقع يتحول إلى عاصمة فاتنة

لولا تلك السحن الشرقية السمات التي تصافح عينيك أول ما تهبط بك الطائرة في مطار كوالا لمبور الدولي في سوبانج ، لخيل اليك أنك في مطار احدى العواصم الأوروبية . ويزداد ذلك الانطباع رسوخاً في ذهنك عندما تغادر المطار سالكاً الطريق المؤدي الى العاصمة المحفوف بالخضرة والزهور من كل جانب حيث تأخذ المباني الشاهقة تتبدى لك شيئاً فشيئاً ، وتنفسح أمام ناظريك الشوارع الواسعة والميادين المنسقة ، والمعارض التجارية الأنيقة والفنادق الحديثة . ولعل أكثر ما يثير دهشة الزائر هو ذلك الهدوء الذي يرين على أحياء العاصمة رغم الازدحام الشديد . فالسيارات تتحرك في جميع الاتجاهات دونما جلبة أو ضوضاء ، والمشاة والباعة المتجولون يسيرون بهدوء ونظام . وما أن تستقر في الفندق حتى تنازعك نفسك الى الانطلاق في أرجاء العاصمة ، للوقوف على معالمها الجميلة والاستمتاع بأجوائها الحالمة العبقة ، فهي تقوم وسط حديقة يانعة فسيحة الأرجاء تتخللها الحشائش الخضراء والزهور من كل لون وعطر ، فالمطر يهمي عليها باستمرار .

ومدينة كوالالمبور من المدن الحديثة ، إذ لا يزيد عمرها على ١٢٠ عاماً ، ومع ذلك فانها تضارع أبرز العواصم العريقة في العالم . ليس ذلك فحسب ، بل ان ما بلغته من نمو وازدهار في هذه الفترة القصيرة من عمرها يثير الاعجاب حقاً ، سيما وأنها قامت في منطقة كانت حتى عهد قريب موبوءة بالملاريا والكوليرا والدوسنطاريا وغيرها من الأوبئة الاستوائية . فعلى بعد ثلاثين كيلومتراً الى الداخل من ساحل ماليزيا الغربي المقابل لمضيق ملقة يتحد نهرا «كلانج»



محطة السكة الحديدية في العاصمة تزخر بالمسافرين،فهي توفر لهم رحلات صباحية سريعة الى سنغافورة

و « جومباك » ليغدوا نهرا واحداً تنساب مياهه في منطقة سهلية موحلة ، مكونة المستنقعات والأهوار والجداول التي تعيش فيها التماسيح الشرسة ، وتنمو فيها الأشجار بكثافة تكاد تحجب عنها ضوء الشمس . هنا في هذه البقعة كان التجار الصينيون يذرعون الأهوار والجداول جيئة وذهاباً بقواربهم المستطيلة من نوع « السامبان » . والى هؤلاء التجار يعزى اكتشاف الثروة الحقيقية للمنطقة ألا وهي القصدير الذي وجد بكميات كبيرة . وعلى فم النهر الموحل الذي أعطى مدينة « كوالالمبور » اسمها الحالي ، أقام الصينيون بزعامة « باب آه لوي » الملقب بقبطان الصين ، أكواخاً متواضعة . ولم يدر بخلدهم آنذاك أن أكواخهم البسيطة المسقوفة بالجذوع والأغصان ستشكل النواة لعاصمة متطورة تؤمها أفواج السياح من شتى أنحاء العالم . فاليوم تقف هذه العاصمة في مصاف أجمل المدن والحواضر في جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى بما تحتضنه من مفاتن وعجائب يفاجأ بها الزائر . فهي مزيج متآلف من أجناس

وثقافات وطرز معمارية متباينة ، فسكانها الذين يربو تعدادهم على المليون نسمة هم مزيج عرقي مؤلف من الملاويين ، والصينيين ، والهنود ، وجاليات أخرى كثيرة . فاذا ما تجولت في شوارعها تشهد كرنفالا عجيباً من الأزياء ينافس في تعدد ألوانه الزهور التي تقع عليها عيناك أنى نظرت . فالزي الغالب بين الرجال القميص وتحته البنطلون وفوقه ازار فاقع الألوان ، أما الماليزيات فيرتدين الملابس التقليدية المؤلفة من « الكباية » وهي قميص نسوي حريري في الغالب يلف الخصر باحكام ويصل الى النحر ، وتحته ازار . كما تشاهد الكثيرين من رجال ونساء يرتدون الملابس الغربية على اختلاف أشكالها وألوانها ، سيما الفتيات الصينيات والاوراسيات العاملات في المكاتب والمؤسسات التجارية . ومما يضفي على المدينة جمالاً ورونقاً ذلك الطراز المعماري المغربي الذي يتجلى بسماته المميزة في كثير من المباني الحكومية ومحطة السكة الحديدية التي سبق أن أنشأها البريطانيون ، ويخالها الزائر وكأنها قصور شاهقة . واذا

سرت قليلاً من وسط المدينة وجدت نفسك في الحي الصيني الذي تزدحم شوارعه براكبي الدراجات ، والسواح والباعة المتجولين ، وباعة الفواكه الطازجة الغريبة والتجار الذين يعرضون سلعهم التجارية بأسلوب مهذب ، والتي تشمل أصنافاً متنوعة من المصنوعات المحلية كالقماش الباتيكي ، والقماش المقصب بخيوط الحرير أو الذهب أو الفضة ، والأواني الفضية ، والمجوهرات والحقائب الجميلة المصنوعة من الجلد أو خوص النارجيل . والسيراميك الصيني ، هذا بالاضافة الى أصناف شتى من السلع المستوردة . فاذا ما أصابك النّصب من التجوال بامكانك أن تدلف الى أحد المقاهي الصينية ذات الكراسي الخيزرانية لترتشف الشاي الأخضر وترقب الغادي والرائح . وقد تتوق الى مشاهدة ضواحي المدينة حيث القرى الملايوية الهادئة « الكامبونج » ذات المساكن الشعبية الخشبية الأنيقة التي تقوم على مصاطب تطل على بساتين الفاكهة وحدائق نباتات الزينة المزروعة في الأصص . هناك في أحضان الطبيعة الحالمة لن تعدم من يسرد على



الأشجار الوارفة والأزهار المتفتحة تنتشر حول الفنادق الفخمة في كوالا لمبور .

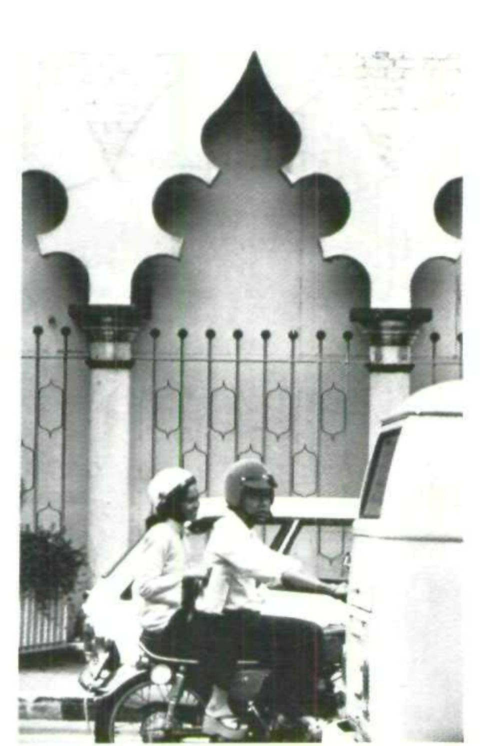
مسامعك قصة تلك المدينة ومراحل تطورها ، منذ أن أعاد بناءها ، عقب حرب أهلية مدمرة ، قبطان الصين « باب آه لوي » كما يحلو لهم تسميته ، وأصبحت مركزاً رئيسياً للتعدين بعد اكتشاف القصدير . ويشرح لك كيف ان زعماء القبائل الملايوية القاطنة بين مناجم القصدير والبحر ، كانوا يفرضون الاتاوات على تصدير القصدير ، فتدفع لهم دولارات فضية وسيوفاً . واكتسب عمدة قرية « فم الأنهار الموحلة » باب آه لوي شهرة واسعة ، وجمع ثروة ضخمة مكنته من فرض احترامه على سكانها من عمال المناجم . ومن ثم أخذ بالاهتمام بقريته فأسس فيها مدرسة ومستشفى . ولما اتخذ البريطانيون من « كوالالمبور » مقراً للمندوب السامي عام ١٨٨٠م ، نظرا لموقعها المتوسط ، راحت تسير مساراً عصرياً أشرفت عليه ادارتا الأشغال العامة والمساحة . فباشرتا في تجفيف المستنقعات للقضاء على الأوبئة التي كانت تهدد حياة سكان المدينة . ثم أنشيء فيها مستشفيان آخران ، وخططت الشوارع على نمط عصري حديث . ولم يعش قبطان الصين ليرى بعينيه ذلك التحول الكبير الذي طرأ على قريته التي عمل من أجلها الكثير ، فقد وافته المنية عام ١٨٨٥م . ثم لم تلبث ادارة المدينة أن أدخلت اليها مياه الشرب النقية من منطقة « أمبانج » المرتفعة المطلة الآن على الحي الذي يقوم فيه فندق هيلتون كوالالمبور الذي يضم ٥٩٠ غرفة ويشرف على ميدان السباق . وما أن أطل القرن العشرون حتى أخذت « كوالالمبور » تتمتع بمقومات المدينة العصرية . فنشطت فيها الحركة التجارية وأنشئت حولها مزارع المطاط والشاي والقهوة . وبعد استقلال ماليزيا عام ١٩٥٧ خطت « كوالالمبور » خطوات واسعة إذ أصبحت المركز الرئيسي للنشاط الاجتماعي والسياسي والثقافي والتجاري في البلاد . فمنها تتفرع شبكة من الطرق والسكك الحديدية التي تربطها بأقصى أنحاء البلاد ، كما تربطها الخطوط الجوية الماليزية بالمدن الرئيسية في جنوب شرق آسيا بالاضافة الى مدن أخرى كثيرة كتايبيه ، ومانيلا ، وطوكيو ، وسدني ، ومدراس وجدة ، ولندن . ومع انها كانت دائماً العاصمة غير المعلنة للبلاد ، إلا أنها لم تحمل هذا اللقب بشكل رسمي إلا في أول فبراير ١٩٧٢م ، حينما منحت شعاراً مؤلفاً من ثلاث قطع ترمز الى عاصمة الدولة ، ومركز التجارة ، ومحور الثقافة والتعليم .

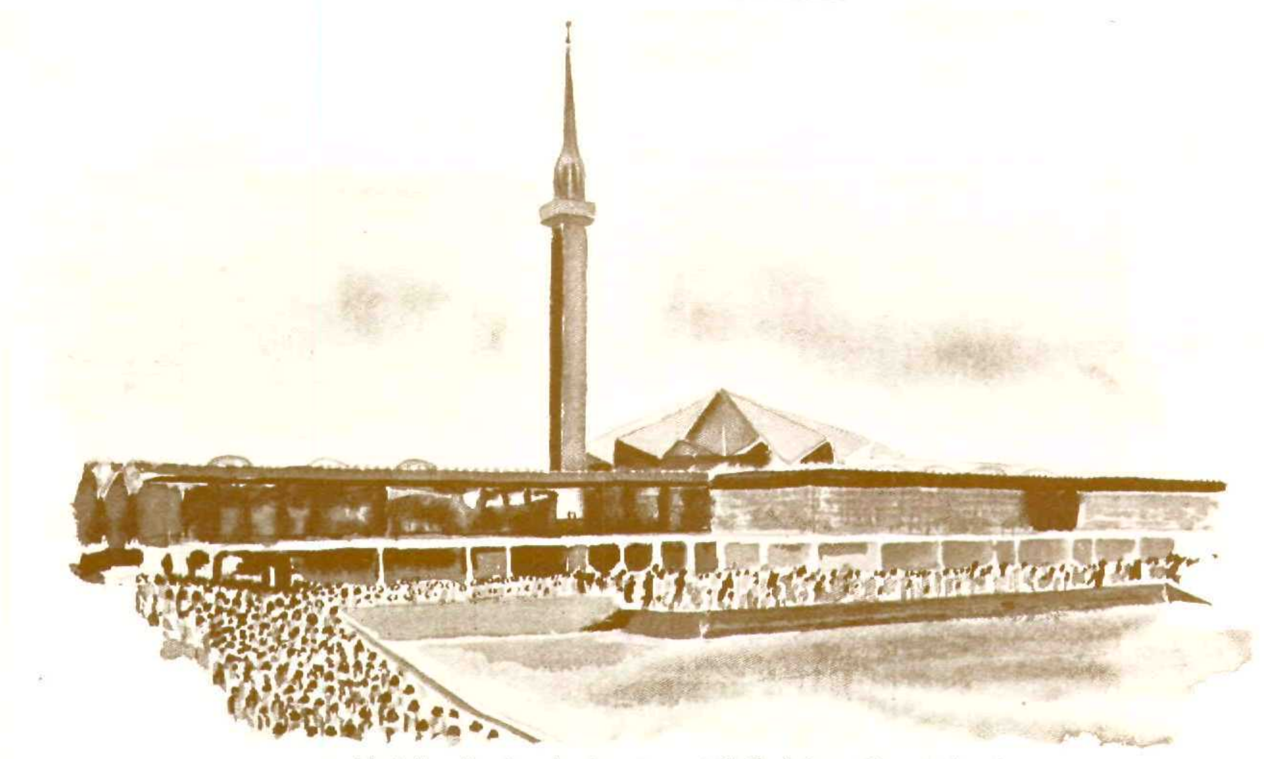
مطار كوالا لمبور الدولي الذي يبعد عن المدينة نحو ٢٢ كيلومتراً هو النافذة التي تطل منها العاصمة على جميع أنحاء العالم .

لمواجهة التزايد السكاني في العاصمة «كوالا لمبور» أخذت الدولة في تنفيذ مشاريع الاسكان العديدة ، وهذا هو مشروع الاسكان في «بندر رايا» في ضواحي العاصمة.

المكان المفضل للاجتماعات والمؤتمرات

ان ما تتمتع به كوالالمبور من طبيعة فاتنة ، وما يتوفر فيها من مرافق للاجتماعات والمؤتمرات مجهزة بأحدث مبتكرات العصر ، وما يحف بها من منتجعات ترفيهية رائعة ، وما تزخر به من معالم عمرانية جميلة الطراز ، كل ذلك يجعل منها البقعة الأثيرة للنفوس ، فتعقد فيها المؤتمرات الدولية ، وتقام فيها المعارض التجارية ، ويقصدها آلاف السواح من شتى أرجاء العالم للاستمتاع بمفاتنها الخلابة . ومن بين معالمها البارزة «ديوان تنكو عبد الرحمن» القائم على طريق امبانج على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من سكرتارية الدولة . وسمي كذلك نسبة الى «تنكو عبد الرحمن» وهو أول رئيس وزراء للاتحاد الماليزي . والمبنى عبارة عن قاعة فسيحة مجهزة بمعدات الترجمة الفورية في أربع لغات ، وقد استضاف كثيراً من المؤتمرات الدولية وعدة اجتماعات لهيئة الأمم المتحدة . وهناك أيضاً «ديوان بهاسا دان بوستاكا» أي معهد اللغات والآداب ، وفيه عقد عدد كبير من الندوات الدولية بوصفه مركزاً للدراسات اللغوية . ويضم قاعتين كبيرتين تتسع كل منهما لأربعمائة شخص . ومن المؤسسات التعليمية العالية في المدينة نشاهد «جامعة الملايو» التي تحتضن الاف الطلاب والطالبات ، وهي تقوم في احدى ضواحي المدينة في وادي «بانتاي» ولها حرم جامعي أخاذ . ثم هناك الكلية الاسلامية ، وتمتاز بقاعات المحاضرات الرحبة . هذا وتقام بعض الاحتفالات الرسمية والألعاب الرياضية والمعارض التجارية في «ستاد نيجارا» أي الأستاد الوطني ، وهو أستاد فخم واسع في وسطه مسرح متحرك هيدروليكي . وفي وسط المدينة يقوم أستاد آخر فسيح الأرجاء هو أستاد الحرية «مرديكا ستاديوم» الذي تم انشاؤه عام ١٩٥٧ لاعلان استقلال البلاد ، ويتسع لنحو ثلاثين ألفاً .


مظاهر الحياة القديمة والحديثة التي تربط الحاضر بالماضي في كوالا لمبور .



احد المساجد الاسلامية في كوالالمبور وقد تجلى في بنائه طابع البناء الحديث .

والملاحظ في كوالالمبور أنها في السنوات العشر الماضية شهدت تطوراً سريعاً في الناحية العمرانية ، تنعكس آثاره على الأسواق المركزية والعمارات السكنية ، والمباني المكتبية الفخمة ، بما في ذلك البنك الوطني « بنك نيجارا » المؤلف من ١٩ طابقاً ، ومقر اتحاد المصارف الماليزية المؤلف من ٢٦ طابقاً . ويجري العمل الآن على انجاز المركز التجاري والمالي على مقربة من محطة السكة الحديدية ، ويتألف من ستين طابقاً وتقدر تكاليفه بمائتي مليون دولار امريكي . وهو من المشاريع المشتركة التي يجري تنفيذها ضمن خطة الدولة في تطوير العاصمة وتجميلها . وقد استدعى هذا النمو السريع توسعة وتحسين الشوارع الرئيسية المنبثقة من قلب المدينة ، كما يجري الآن انشاء طريق بين كوالالمبور وميناء « كيلانج » الذي يبعد عن العاصمة نحو ٤٠ كيلومتراً الى الغرب . هذا وان السكة الحديدية التي تمتد من حدود تايلاند شمالاً الى سنغافورة جنوباً ماراً بالعاصمة ، تسهم الى حد كبير في نهضة البلاد بوجه عام والعاصمة بوجه خاص . ناهيك عن مطار كوالالمبور الدولي الذي يربط ماليزيا بأمهات المدن في العالم عبر نحو عشرين خطاً من الخطوط الجوية العالمية ، اذ ان ما يزيد على ٩٠ بالمئة من القادمين الى ماليزيا يصلون جواً .

ومن بين المعالم البارزة في العاصمة الماليزية المسجد الوطني ، الذي يقوم في وسط المدينة على شارع السلطان حسام الدين ، وهو يمتاز بزخارفه ونقوشه البديعة التي تتجلى في قبابه المروحية الشكل وأساطينه المرمرية وأروقته الفسيحة وصحنه ومنارته السامقة . ويضم المسجد مكتبة واستراحة صغيرة للامام ، وغرفة للملك وسلاطين الولايات ، وحجرات لموظفي المسجد .

ومن المباني البارزة التي تستهوي الأنظار في كوالالمبور مبنى البرلمان الماليزي ذو الثمانية عشر طابقاً ، القائم وسط مروج خضراء في حدائق البحيرات القريبة من قلب المدينة ، وهي من أجمل مناطق العاصمة . كما يستطيع الزائر أن يقف على تراث ماليزيا الثقافي وعادات وتقاليد أهلها في المتحف الوطني القائم على حافة حدائق البحيرات وفيه تعرض نماذج حية تمثل مظاهر الحياة قديمها وحديثها بشكل منسق بديع . هذا الى جانب عدد من الفنادق الفخمة ، والمطاعم ، والنوادي ، وبرك السباحة الحديثة الطراز .

مدينة المرح والمهرجانات الدائمة

لعل أكثر ما يثير دهشة الزائر لكوالالمبور هو الاحتفالات المستمرة فيها ، فمن أعياد وطنية الى اعياد دينية . فكل طائفة لها أعيادها الخاصة التي تحتفل بها . فخلال هذه الأعياد تلبس أحياء المدينة حللا قشيبة من الزخارف وألوان الزينة مما يضفي عليها جواً من الفرح والبهجة . فالمسلمون ويمثلون نحو ٦٠ بالمئة من السكان يحتفلون بعيدي الفطر والأضحى . والصينيون يحتفلون خمسة عشر يوماً بعيد رأس السنة الصينية ، اذ يستعدون لهذا العيد قبل حلوله بأسابيع فيشترون الملابس الجديدة ويحضرون الحلويات الصينية لهذه المناسبة . والهندوس يحتفلون بعيد النور « ديبافالي » بملابسهم المزركشة .

وبالرغم من أن العاصمة كوالالمبور مدينة تجارية نشطة يؤمها رجال الأعمال من شتى انحاء المعمورة فانها تتحف الزائر بمباهج ومفاتن قل ان يجدها في مدينة اخرى . ولا تقتصر هذه المباهج على المدينة نفسها ، بل هناك بقاع جميلة قريبة من العاصمة يستطيع الزائر أن يقضي فيها أمتع الأوقات . ففي أقل من ساعة في السيارة تجد نفسك على قمم جبل « بريزر » الخضراء حيث المتنزهات ، وملاعب الجولف ، والأندية ، والفنادق الصغيرة الأنيقة ، والمقاهي ، والمطاعم التي تقدم مختلف أنواع المأكولات من شرقية وغربية . واذا رغبت في الاستمتاع بمياه البحر فهناك الشواطيء الحالمة في ميناء مدينة « بينانج » التي يرتادها الأهلون والسواح فيجدون فيها ما تتوق اليه النفس ، وما ترتاح اليه العين من مناظر طبيعية فاتنة .

تلك هي مدينة كوالالمبور التي خلفت ماضياً قاتماً لتعيش مستقبلاً زاهراً ●

سليمان نصر الله – هيئة التحرير

عن مجلة « اويل لايف ستريم أف بروجرس »

تصوير : كالتكس

مرض السكري



بقلم: الدكتور ابراهيم ناصر

السكري مرض وراثي مزمن يصيب معظم أعضاء الجسم ، وتظهر أعراضه بشكل انحلال عام في الجسم وفقدان الوزن وارتفاع في نسبة السكر في الدم . ومع الزمن وتقادم المرض تصاب الأوعية الدموية الدقيقة بهذا المرض مما ينتج عنه المضاعفات المعروفة وهي : فقدان البصر ، وهبوط الكلى ، وارتفاع ضغط الدم ، وهبوط القلب .

لمحة تاريخية

كان العالم اليوناني « أرثيوس » أول من وصف مرض السكري في القرن الأول قبل الميلاد وأطلق عليه الاسم الذي يحمله اليوم وهو « Diabetes » ومعناها باليونانية « سيفون — Siphon » وذلك لكثرة الادرار البولي لدى المصابين به . وفي القرن الثامن عشر للميلاد اكتشف العالم « دوبسون — Dobson » وجود كميات كبيرة من السكر في البول لدى المرضى المصابين . وفي عام ١٨٨٩ م استطاع العالمان « Von Mering » و « Minkowski » اكتشاف مرض السكري لدى الكلاب بعد استئصال غدة البنكرياس مما أثبت العلاقة القوية بين هذه الغدة وبين المرض المذكور .

ولعل أهم حدث في تاريخ هذا المرض هو تمكن العالمين « بانتنج — Banting » و « بست — Best » من الحصول على خلاصة غــدة البنكرياس « الانسولين — Insulin » وتنقيتها واستعمالها بنجاح في علاج مرض السكري ، فكان هذا أول بارقة أمل بالنسبة لهؤلاء المرضى .

انتشار مرض السكري وطرق وراثته

السكري مرض شائع يصيب الصغار كما يصيب الكبار ولكن نسبة الاصابة به تزداد بتقدم السن ، فاذا أخذنا أي مجتمع بشكل عام فان نسبة الاصابة به بين الأشخاص الذين تزيد أعمارهم على ٦٠ سنة قد تصل الى ١٠٪ . ويعتقد أن للسمنة علاقة وثيقة بالمرض حيث أن نسبة احتمال الاصابة به تزداد بازدياد الوزن . ومع أن مرض السكري ، مرض وراثي الى حد ما ينتقل من الآباء والأمهات الى أبنائهم ، إلا أن ظهوره يخضع لعوامل متعددة تتجاوز عامل الوراثة ، من ذلك السمنة وغــيرها .

ومن المعلوم أنه في حال اصابة الأبوين بمرض السكري فان جميع أولادهم معرضون للاصابة اذا قدر لهم أن يعيشوا طويلاً ولكن قد يحدث أحياناً أن يعيش أحد الأبناء فترة طويلة وقد يموت قبل أن يصاب بهذا المرض .

والآن وقبل أن ندخل في تفصيل أعراض مرض السكري ومضاعفاته ، لا بد لنا من أن نستعرض بايجاز عملية تنظيم وتمثيل السكر في الجسم – « Sugar Metabolism » .

تتحول المواد النشوية بعد هضمها في الامعاء الى مواد سكرية أولية يتم امتصاصها ، ثم تنقل هذه المواد السكرية بواسطة الدم الى الكبد وبقية أعضاء الجسم . ولعل من أهم هذه المواد السكرية الأولية هو سكر « الجلوقوز – Glucose » الذي ينتقل بواسطة الدم الى خلايا الجسم المختلفة . وبعد أن يخترق جدار الخلية ، يمر هذا السكر بعدد من التفاعلات الكيماوية ، وبمساعدة العديد من « الانزيمات » يتم احتراق هذا السكر لانتاج الطاقة الحرارية اللازمة للجسم . وفي حالة عدم الحاجة إلى هذه الطاقة يخزن السكر على شكل الغليكوجين – Glycogen » في الكبد أو على شكل دهن في الشحم .

أما هورمون الانسولين فيأتي دوره الهام في عملية تنظيم احتراق مادة السكر لجدار خلايا الجسم . ففي حال نقصان هذا الهورمون كما هي الحال بالنسبة لمرضى السكري يتعذر على مادة السكر دخول خلايا الجسم وخاصة الكبد والعضلات وبالتالي يقل تمثيل السكر من قبل هذه الخلايا وترتفع نسبته في الدم .

وفي الحالات الطبيعية ، يتم الحفاظ على نسبة السكر في الدم في حدود ضيقة بحيث لا تقل عن ٥٠ ملغم٪ ولا تزيد على ١٥٠ ملغم ٪ . ففي حال الصيام وامتناع الانسان عن الطعام لفترات طويلة ، يقوم الكبد بافراز كميات كبيرة من السكر واعادتها إلى الدم وذلك بتحليل المخزون من « الغليكوجين » ، بمساعدة أحد الهورمونات التي يفرزها البنكرياس ، وهذه العملية هي في منتهى الأهمية للمحافظة على نسبة السكر في الدم في حالة الصيام حيث توفر الكمية اللازمة من السكر للخلايا والأنسجة التي لا تقوى على البقاء بدون السكر مثل الدماغ والجهاز العصبي . وفي المقابل فانه بعد تناول وجبة غنية بالمواد النشوية تزداد نسبة السكر في الدم ، وفي هذه الحال وحتى تتم المحافظة على نسبة السكر في الدم في حدود معينة تزيد غدة البنكرياس من افرازها لهورمون الانسولين الذي يساعد بدوره على دخول السكر لخلايا الكبد والعضلات فتنخفض نسبة السكر في الدم .

ومن الممكن اختبار قدرة الجسم على المحافظة على نسبة السكر في الدم في حدود معينة بالكشف على نسبة السكر في الدم بعد ١٢ ساعة من الصيام ومن ثم بعد تناول مئة غرام من السكر – Glucose Tolerance Test » . وتتراوح نسبة السكر في الدم بعد الصيام في الشخص الطبيعي ما بين ٦٠ – ١٠٠ ملغم ٪ . فاذا قلت أو زادت دل ذلك على وجود خلل في نظام الجسم المسؤول عن تحديد نسبة السكر .

وبعد تناول وجبة السكر بالكمية المذكورة ترتفع نسبة السكر في الدم لتصل الى ١٥٠ ملغم ٪ بعد نصف ساعة ، ولكن هذه النسبة سرعان ما تنخفض تدريجياً الى الحدود الطبيعية في خلال ساعتين أو ثلاث ساعات بحيث تقل عن ١٠٠ ملغم ٪ .

أما في حال الاصابة بمرض السكري فان نسبة السكر في الدم تزيد من ١٠٠ ملغم٪ في حالة الصيام وترتفع كثيراً بعد تناول ١٠٠ غم من السكر وتبقى كذلك لفترة أطول تزيد على الساعتين . وفي هذا المجال لا بد من التعرض للعلاقة الوثيقة بين تمثيل السكر والدهن في الجسم .

تستطيع الأنسجة الدهنية (الشحم) والكبد معاً تحويل السكر إلى مواد دهنية ولكن لا بد من وجود هورمون الانسولين حتى تتم هذه العملية بيسر .

فالسكر ، كما اسلفنا ، اما ان يُحرق لانتاج الطاقة اللازمة للجسم أو أن يُخزن في الكبد على شكل « غليكوجين – Glycogen » أو أن يتحول الى أحماض دهنية تخزن في الشحم . ولا بد لكل من هذه العمليات من ترفر الانسولين بكميات كافية . ففي حالة نقصان الانسولين ، كما هي الحال لدى مرضى السكري ، فانه يتعذر على الجسم استعمال السكر لانتاج الطاقة كما يتعذر عليه تحويل السكر وتخزينه على شكل « غليكوجين » أو أحماض دهنية فترتفع بذلك نسبة السكر في الدم ويتم افرازه في البول . وفي هذه الحالة يستعيض الجسم عن السكر كمصدر للطاقة باستعمال الدهن والبروتينات وبذلك تزداد عملية هدم البروتينات الموجودة في الجسم ويزداد كذلك تحليل الشحم الى أحماض دهنية تتراكم في الجسم وبالتالي الى « أحماض كيتونية – Ketone Bodies » مما يزيد في درجة « حموضة الدم – Acidosis ».

ما هو الأنسولين

انه احد الهورمونات التي يفرزها بعض خلايا غدة البنكرياس « B-Cells » ويتكون من سلسلتين من « الاحماض الامينية – Amino Acids » . وتتحكم نسبة السكر في الدم في عمليه افراز مادة الانسولين من البنكرياس . فاذا زادت نسبة السكر في الدم على ١٠٠ ملغم٪ زادت خلايا البنكرياس من افراز مخزونها من الانسولين وهذا بالتالي يساعد على تنظيم نسبة السكر في الدم . واذا ما قلت هذه النسبة انعدمت الحاجة للانسولين وقل افرازه .

أما كيف يعمل الإنسولين على تنظيم نسبة السكر في الدم فالتفاصيل ليست معروفة وان كان من المؤكد انه يسهل في دخول مادة السكر ويزيد من قدرة الجسم على تركيب الدهن و « الغليكوجين » . لذلك نرى ان المصابين بمرض السكري يعانون من نقص في هورمون الانسولين مما يجعل مادة السكر هذه تجد صعوبة كبيرة في دخول جدار الخلايا . وهذا النقص في الانسولين ، يسبب تحولاً حاداً في العمليات الكيماوية داخل الجسم بحيث يزداد تحليل البروتينات والدهنيات الى أحماض امينية وأحماض دهنية ومن ثم الى سكر . ونتيجة لذلك ترتفع نسبة السكر في الدم . ومتى زادت هذه النسبة على ١٥٠ ملغم٪ افرزت الكليتان السكر الزائد فيظهر في البول . وفي الحالات الشديدة ، قد تصل كمية السكر التي تخرج مع البول إلى ٥٠٠ غم يومياً أو ما يعادل ٢٠٠٠ من السعرات الحرارية . ومع افراز هذه الكمية الكبيرة من السكر مع البول يفقد الجسم كذلك كمية هائلة من الماء مما يسبب « الجفاف العام – Dehydration » . ونتيجة لذلك فانه بسبب نقص الانسولين يقل اعتماد الجسم على السكر كمصدر للطاقة ويستعيض عنه بالدهن حيث يتحلل الى أحماض امينية ومن ثم الى احماض كيتونية وينتج عن ذلك امران خطيران وهما ، ترركم كميات كبيرة من الدهن في الكبد وزيادة نسبة « حموضة الدم – Acidosis » مما يترتب على ذلك فقدان الوعي والغيبوبة في الحـالات الشديدة – Diabetic Coma » .

ولعل من أهم أعراض مرض السكري اصابة الأوعية الدموية الدقيقة بالتصلب حيث تضيق هذه الأوعية مما يسبب نقصاً في كمية الدم التي تصل الى خلايا وانسجة الأعضاء المصابة . وتعتبر اصابة هذه الأوعية الدموية الدقيقة بالتصلب امراً خاصاً بمرض السكري حتى أن البعض يعتقد أن هذه هي العلة الأساسية لهذا المرض فيعللون نقص مادة الانسولين باصابة الاوعية الدموية التي تغذي البنكرياس مما يسبب تلف هذا العضو الحيوي ونقص افرازه لمادة الانسولين . ولعل أكثر الأعضاء الحيوية تضرراً لدى اصابة هذه الأوعية بالتصلب ، العينان والكليتان والدماغ والقلب .

أعراض مرض السكري ومراحل تطوره

مرض السكري كما اسلفنا ، مرض وراثي ، وهذا يعني أن المريض بالسكري مصاب بهذا المرض منذ ولادته ولكن وقت ظهور اعراض المرض يختلف باختلاف السن . فعند بعض المرضى يظهر في سني الطفولة وفي البعض الآخر يتأخر ظهوره الى ما بعد سن الستين . هذا ويمكن تقسيم مراحل المرض الى ثلاث :

• **مرحلة ما قبل ظهور المرض :** وتبدأ هذه المرحلة منذ لحظة الولادة حتى ظهور المرض ، وفيها يخلو المريض بطبيعة الحال من أية أعراض ويتعذر معرفة ما اذا كان المريض مصاباً بالمرض حتى باستعمال جميع الوسائل المخبرية الحديثة . ويعتبر كل شخص ولد لابوين مصابين بمرض السكري حاملاً للمرض حتى ولو لم تظهر عليه اية اعراض ، وهذه الفئة من الناس تجب معاينتها دورياً باجراء الفحص على البول والدم للتأكد من ظهور المرض او عدم ظهوره . وفي بعض الحالات يشك الطبيب بوجود مرض السكري لدى بعض المرضى المصابين بالسمنة وذلك لأن نسبة السكر في الدم ترتفع قليلاً فوق المعدل خاصة بعد وجبة غنية بالمواد النشوية . وعلى سبيل المثال نذكر ان الطبيب قد يرجح وجود مرض السكري لدى المرأة الحامل اذا كان حجم الجنين أكبر بكثير من عمره او اذا تكرر موت الجنين في الأشهر الأخيرة من الحمل .

• **مرحلة ظهور المرض من ناحية مخبرية** — بالرغم من أن المريض لا يشكو من أية أعراض لمرض السكر ، في هذه المرحلة ، الا انه يسهل على الطبيب التأكد من وجود المرض وذلك بالكشف على نسبة السكر في البول او نسبة السكر في الدم . وقد تطول هذه المرحلة أو تقصر اذ انه في بعض الأحيان يبقى المريض في هذه المرحلة دون ظهور الاعراض حتى الوفاة بسبب آخر غير السكري . وفي هذه المرحلة يسهل على الأطباء ضبط المرض ومعالجته . فاذا كان المريض سميناً واستطاع ان يخفف من وزنه بضعة كيلوغرامات تكون هذه كافية لتجنيب المريض ويلات المرض لفترة من الزمن .

• **مرحلة ظهور أعراض المرض :** في هذه المرحلة يشكو المريض أول ما يشكو من كثرة التبول . وبسبب كثرة التبول وفقدان كميات كبيرة من الماء يشعر المريض بجفاف شديد في الفم والحلق مما يحمله على شرب كميات كبيرة من الماء . كما يصيب الجلد جفاف شديد ترافقه حكة . ونتيجة لفقدان كميات كبيرة من السكر في البول فان المريض يفقد الكثير من وزنه وبسرعة مذهلة بالرغم من تناوله كميات كبيرة من الطعام ، كما يشعر بانحلال عام في الجسم وبالتعب الشديد لاقل مجهود .

وأشد ما يكون مرض السكري حين يصيب الاطفال دون سن العشرين — Juvenile Diabetes حيث تظهر اعراضه بشكل حاد ، ويتطور بسرعة محدثاً مضاعفاته المعروفة في العينين والكليتين والجهاز العصبي والقلب . أما في الكبار فيأتي المرض في العادة خفيفاً ويتطور بشكل بطيء على مدى سنوات طويلة قد تمتد ما بين ٢٠ و ٣٠ سنة . ولكن في بعض الحالات وخاصة عندما يتهاون المريض بتناول العلاج أو في اتباع نظام معين للطعام ، يتطور المرض بصورة مذهلة مسبباً « الغيبوبة — Diabetic Coma » أو الوفاة المبكرة . ولكن مثل هذه المضاعفات قلت في الآونة الأخيرة حيث باتت وسائل العلاج الناجعة متوفرة اليوم .

ومن المعلوم ان مقاومة مرضى السكري للجراثيم البكتيرية والفطرية تقل عن امثالهم من الاصحاء مما يزيد في نسبة الالتهابات الناتجة عن مثل هذه الجراثيم ، مثل التهابات المسالك البولية وخاصة لدى النساء . ولعل من بين مضاعفات مرض السكري الناجمة عن اصابة « الأوعية الدموية الدقيقة — Arterioles and Capillaries » بالتصلب اصابة شرايين الشبكية الدقيقة للعين بالتصلب محدثة نزيفاً داخل الشبكية يمكن رؤيته بفحص قاع العين بجهاز خاص . ويحدث نتيجة لذلك تلف الشبكية الذي قد يُودي بالبصر مسبباً العمى المبكر . ويكاد يكون مرض السكري احد اهم اسباب فقدان البصر في الوقت الحاضر . ومن الأعضاء الحيوية التي تتاثر بمرض السكري : الكلى حيث يتلفها تصلب الشرايين مسبباً « هبوط الكلى — Uremia » والذي يعتبر من أهم أسباب الوفاة لدى مرضى السكري .

ومن هذه المضاعفات الأخرى الخطيرة اصابة شرايين الجسم عامة بالتصلب . فاصابة شرايين الدماغ مثلاً ينجم عنها الشلل النصفي وتلف الدماغ . كما أن اصابة شرايين القلب تسبب الذبحة الصدرية وهبوط في القلب . ومن ناحية أخرى فان اصابة الشرايين التي تغذي الأطراف وخاصة الأرجل بالتصلب ، تنتشر لدى مرضى السكري وينتج عن ذلك انخفاض في كمية الدم التي تصل هذه الأطراف وقد يتسبب ذلك في تلف القدمين بسبب « الغرغرينا — Gaugrene » مما يضطر أحياناً الى اللجوء الى بتر احدى أو كلتا قدمي أو رجلي المريض . ومن هنا أيضاً تأتي أهمية العناية بالقدمين بالنسبة لمرضى السكري ومحاولة تجنب جرحهما (خاصة أثناء تقليم الأظافر) ومعالجة أي التهاب قد يصيبهما بأقصى سرعة ممكنة وبعناية تامة .

وبنتيجة اصابة الجهاز العصبي الذي يغذي الأطراف (Polyneuritis) يحس مرضى السكري باخدرار وتنميل في الأرجل وقد يفقد هؤلاء القدرة على الاحساس بالألم والحرارة والبرودة . ومن أعراض تأثر الجهاز العصبي بمرض السكري فقدان القدرة الجنسية أو ضعفها لدى المصابين به .

تشخيص المرض

من اليسير التأكد من وجود المرض بعد أن تظهر أعراضه ، ويتم ذلك بالكشف عن وجود السكر في البول بطريقة بسيطة يستطيع المريض نفسه أن يجربها وذلك باستعمال شريط خاص يوضع في البول ثم يلاحظ تغير لون الشريط . فاذا ما بقي على لونه الأصفر دل ذلك على

عدم وجود السكر في البول . وبحسب كمية السكر في البول يتغير الشريط من أخضر فاتح الى أخضر غامق . أما الكشف عن مقدار نسبة السكر في الدم فيتم بواسطة فحص مخبري .

وفي حالات الشك في الاصابة بالسكري ، يجرى الكشف عن نسبة السكر في الدم بعد وجبة من السكر مقدارها ١٠٠غم ثم يلاحظ مدى ارتفاع السكر في الدم والمدة التي يستغرقها لينخفض الى المستوى الطبيعي — Glucose Tolerance Test » . ولذا يتم الكشف عن نسبة السكر في الدم بعد صيام ١٢ ساعة ثم بعد نصف ساعة . ثم بعد ساعة . ثم بعد ساعتين ثم بعد ثلاث ساعات من تناول ١٠٠غم من السكر .

العلاج

السكري مرض مزمن لا يمكن الشفاء منه ولذا فالعلاج منصب على محاولة تنظيم نسبة السكر في الدم والتقليل من افراز السكر في البول والحيلولة دون حدوث المضاعفات الآنفة الذكر . ويمكن تقسيم العلاج الى ثلاثة أقسام رئيسية :

◦ **التغذية — Diet** : يعتبر مرضى السكري هم أحق الناس بالعناية بالغذاء ، فلا بد لهم من تناول كمية متكاملة من الغذاء تحتوي على قدر كاف من البروتينات ، بمعدل ٧٠—١٠٠ غم يومياً ، وكميات مناسبة من النشويات والدهنيات . والغاية المنشودة من نظام التغذية المقترح هي المحافظة على الوزن الطبيعي للمريض. فاذا كان وزن المريض أكثر من الوزن الطبيعي المحدد له بالنسبة لطوله وعمره ، وجب العمل على انقاص وزنه ليصل الى الوزن المحدد له ، وذلك بالتقليل من السعرات الحرارية المستهلكة ، ولهذا ينصح المريض بتجنب الأطعمة الغنية بالسعرات الحرارية — Calories » مثل المواد الدهنية والنشويات كالبطاطا والأرز والحلويات . ومع ذلك فانه يمكن القول بأنه بالامكان علاج نصف مرضى السكري باتباع نظام دقيق من التغذية دون اللجوء الى أي علاج آخر لا سيما في مراحل المرض الأولى . ولكن اذا ما استفحل المرض وظهرت مضاعفاته فلا بد اذن من اللجوء الى استخدام الانسولين أو العقاقير الطبية الأخرى .

◦ اذا ما تعذر علاج السكري بالتغذية ينبغي استعمال أحد العقاقير الطبية المعروفة باسم — « Sulfonylureas » . وأشهر هذه العقاقير « Diabenase » و « Orinase » . وهذان النوعان من العقاقير يساعدان على تنشيط البنكرياس لافراز كمية أكثر من الانسولين . وتصلح هذه الأدوية لمرضى السكري الذين تجاوزوا سن الأربعين ، ومن كان وزنهم فوق المعدل الطبيعي . وقد اتجهت جهود الأطباء في الآونة الأخيرة الى عدم التشجيع على استعمال هذه العقاقير واللجوء الى التشديد على اتباع نظام دقيق في التغذية من أجل تخفيف حدة المرض وتنظيم نسبة السكر في الدم . ويعتقد الأخصائيون أن نسبة كبيرة ممن يتناولون هذه العقاقير يمكنهم الاستغناء عنها اذا ما بذلوا جهداً أكبر في تناول الغذاء الذي يصفه الطبيب ، وتجنبوا الافراط في الأكل .

◦ **الأنسولين** : وهو العلاج الأمثل الذي ساعد على انقاذ حياة الكثيرين من مرضى السكري منذ أن تم اكتشافه سنة ١٩١١ على يد الطبيبين الكنديين « Best » و « Banting » واذا صحت النظرية القائلة بأن مرض السكري هو نتيجة نقص في هورمون الانسولين فان تزويد المرضى بهذا الهورمون كفيل بشفائهم تماماً . ولكن المسألة ليست بهذه البساطة ، فلا شك أنه من الممكن الحفاظ على نسبة السكر في الدم ضمن الحدود الطبيعية عن طريق الانسولين ولكن هذا لا يمنع من حدوث المضاعفات الآنفة الذكر لمرضى السكري وان كان يخفف من حدتها أو قد يؤخر ظهورها لفترة من الزمن .

ويعتقد الأخصائيون أن حوالي ثلث المصابين بمرض السكري في حاجة لاستعمال الانسولين ولكن هذه النسبة قد تعطي القاريء انطباعاً خاطئاً حيث أن الأغلبية العظمى من مرضى السكري يحتاجون الى استعمال الانسولين في أحدى مراحل المرض .

ولذلك فانه لا بد من أن يعرف المصاب بالمرض الكثير عن هذا الدواء الفعال ، فهو أهم شيء بالنسبة له ولا بد للمريض من أن يتعلم كيف يحقن نفسه بالانسولين ويعرف كذلك الكمية التي يحقنها . فالانسولين رغم كونه اكسير الحياة بالنسبة للمريض بالسكري الا انه قد يؤدي إلى الموت اذا ما أخذ بغير حساب . والأطباء دائماً يشددون على أن يكون المريض ملماً بأعراض زيادة الانسولين ليتفاداها في بدايتها حيث يشعر بجوع شديد . ويتصبب منه العرق ويحس بصداع شديد وسرعان ما يفقد الوعي اذا لم يلتهم كمية كافية من الحلوى .

ولذلك ينصح المرضى الذين يتعاطون حقن الانسولين ان يحملوا دائماً شيئاً من الحلوى لاستعمالها عند الحاجة . وهنالك حالات لا غنى عن استعمال الانسولين فيها وأهمها :

أولاً : في حالة اصابة الاطفال او من هم دون سن العشرين بمرض السكري .

ثانياً : في حالة اصابة المرأة الحامل بهذا المرض .

ثالثاً : في حالة اجراء أية عملية جراحية لمرضى السكري ، وهنا لا بد من استعمال الانسولين في فترة ما قبل العملية وأثناءها وبعدها .

رابعاً : في حالة الاصابة بالتهابات حادة .

خامساً : في حالة الغيبوبة بسبب الـــ Diabetic Ketoacidosis .

ومجمل القول ان السكري مرض مزمن يصاحب المريض طوال حياته ، ولا بد هنا من أن يحيط نفسه بأكبر قدر ممكن من المعلومات الدقيقة عن طبيعة المرض ومضاعفاته وعلاجه . وعليه أن يفحص بوله بنفسه وان يتعلم حقن نفسه بالانسولين ولا بد له من أن يعرف اعراض زيادة السكر في الدم وكذلك اعراض زيادة الانسولين وعلاج كلا الحالتين . كذلك لا بد له من مراعاة نظام دقيق في التغذية والمواظبة على العلاج . ويتبين من كل هذا ان العلاج الناجع لمرض السكري يفترض ان يكون المريض على مستوى رفيع من الشعور بالمسؤولية تجاه نفسه .

وزيادة في الحيطة ، يستحسن لمرضى السكري ان يحمل كل منهم بطاقة يدون فيها اسمه وعنوانه والعلاج الذي يتناوله ويكتب على البطاقة العبارة التالية : اذا وجدتني فاقداً للوعي ، اعطني شيئاً من العصير المحلى ثم انقلني الى المستشفى ●

د . ابراهيم ناصر — جامعة البترول والمعادن الظهران

قصة قصيرة



زوجي العزيز

بقلم: السيدة جاذبية صدقي

لو انك لمحتها وهي ترنو اليه هكذا بكل تلك المعاني في نظرة تتلألأ ، وفي بريق يومض ، لآمنت ان العين دائماً ابلغ من الكلام وأروع وأوقع ، حتى تحت ظل اهداب مسترخية يقبع المعنى أحياناً ! حتى من فرجة كشق التينة بين هدبين هشين كجناحي فراشة يطل المعنى احياناً !

ثم لو أن نظرتك قفزت إلى شفتيها ، والعليا الرقيقة المهذبة تحاول ان تمسك بزمام السفلى الجامحة — تعضها مرة وتدغدغها مرة ، ثم تبتلعها في يأس لتخفيها تماماً مرة ثالثة ، لتسمرت نظرتك تلك على ذلك الثغر الذي انقلب إلى ساحة مصارعة !

ولن يمكنك بعد ذلك الا ان تدور بنظرتك تبحث عنه .. هو محور هذا الانفعال كله . فتراه الى جوارها . دائماً « حسن » الى جوار « مها » كأنما هي القلب وهو نبضاته .. هي الورد وهو شذاه . والناس دائماً تسعد بمنظرهما ، حبيبين او على اكثر تقدير ، خطيبين ! لكن الناس دائماً تعجب اشد العجب عندما تعلم انهما زوجان .

و « حسن » نجم في لعبة كرة القدم . وهو لم يتزوج « مها » لأنها مولعة باللعبة وتتتبع أنباءها بل على العكس فانها لم تكن من هواتها او مشاهديها ، انها تفضل لعبة « التنس » حيث كانت تذهب كل عصر ايام المباريات ، الى النادي تجلس وحدها او مع من يكون حاضراً من أهلها ، وعيناها تتبعان اللعب بشغف . . ويداها على حجرها ساكنتان . . وشعرها يقبع على كتفيها وحول رقبتها كالطفل الوديع . . والناس من حولها يتململون ، ويصفقون ، ويتصايحون ، وأعناقهم تتلفت مع الكرة يميناً ويساراً كرقاص الساعة . كان كل انفعالها هي بين حناياها ، وكل اضطرابها هي في بئر . لذلك تعب « حسن » عندما عرفها واحبها بل لهث خلف كلمة من شفتيها ، من عينيها تطمئنانه ! سدى . شفتاها كما وردة مطبقان واهدابها تنسدل في صمت ، فلا يفهم . مع ان المعنى كله والمغزى كله قد يقبع تحت ظلال اهداب مسترخية هكذا . لكنه هو لم يكن يفهم سوى الكلمة المسموعة . . سوى العاطفة الملموسة الظاهرة . فحياته واقعية . انه لاعب متمرس في لعبة كرة القدم ، ويلم بقواعدها وأصولها وفنونها داخل تلك الحدود البيضاء المرسومة على ارض الملعب . فلما اعترضت طريقه تلك المخلوقة الرشيقة التي تسدل اهدابها اذا سألها المرء سؤالاً ويشع من وجنتيها تورد كأنما يتطلع المرء إلى صفحة السماء ساعة الشفق ، فقد انقلبت حياته وطباعه ، حتى ميوله . . فأصبح يعشق لعبة « التنس » فذهب الى احدى مبارياتها ذات عصر وهو يؤكد لنفسه انه انما يذهب لان ألوان الرياضة كلها جديرة بدراسته . ولكن قلبه كذبه ، ولم يطعه ولا أطاعته عيناه ، فقد تعلقتا بوجه « مها » لا بالكرة الطائرة الحائرة بين مضربين .

والكب بعينيه واهتمامه وحواسه جميعها يرقب « مها » على بعد . فلم يجرؤ على الاقتراب منها . فهو لم يكن قد عرفها معرفة تبيح له التقدم منها ومصافحتها هي ومن في صحبتها من الأهل . ومع انه رآها اليوم السابق في المباراة النهائية الكبرى لكرة القدم التي لعب فيها وتألق فيها نجمه ، الا انه لم يجرؤ . ولم تكن « مها » قد ذهبت إلى المباراة باختيارها تلك المرة اليتيمة . « عفت » هي السبب ، « عفت » ابنة خالتها التي تسيطر على « مها » بصخبها وضجيجها وصوتها العالي ! فتوافقها « مها » لا عن ضعف ولكن كي تضع حداً لمناقشتها . فلما جاءتها ذلك اليوم وهي في أوج صخبها ولهفتها ، آثرت « مها » السلامة فذهبت معها ، وهناك رآها « حسن » . كانت له معرفة بـ « عفت » ولمة صديقاتها المتحمسات للعبة . فلما فاز فريقه بفضله وبتصويبه السديد وحمله زملاؤه على اعناقهم وساروا به بين الصفوف ، توجه هو بنظرته وتحياته الى «عفت» وصديقاتها ، فلمح «مها» بينهن هادئة فاتنة في هدوئها وجمالها . وكان هو مجهداً مضطرباً يجذبه المعجبون هذه الناحية وتلك والضجيج حوله يصم الآذان ، وتراب وعرق وشعور منفوشة ، وكانت « مها » في مقعدها في الصف الأول فتعلقت نظرته بها حتى بعد ان ابتعد به حاملوه خارج الملعب ، كاد يفصم عنقه وهو يتلفت جاهداً ليتزود منها بنظرة ، وران عليه سكون وهو قابع في استسلام فوق اكتاف زملائه . وتاه مع أفكاره . من هي ؟ ترى ، من هي ؟ انها واحة وارفة في صحراء انها . . انها . . ولماذا ينتظر ؟ فقفز « حسن » من فوق الاكتاف التي تحتفل به واستبدل بثيابه غيرها أنيقة نظيفة واندفع الى ساحة الملعب ثانية .

وقف مذهولاً ، كأنما استيقظ من حلم . . كانت الساحة خالية تماماً .

ماذا ؟ أمكرت به عيناه ؟ أين ذهبت ؟ هل ذابت كما تذوب الأماني الحلوة ؟ أو لعلها كانت طيفاً تلاشى مع الغيم !

وفجأة لمحت عيناه « عفت » ! انها كانت في صحبة « عفت » ! لقد لمح « عفت » تميل عليها وتسر اليها قولاً فتبتسم الجميلة وتومىء في صمت .

وانطلق الى التليفون .

فلما اجابه ابوها لم يلق بالسماعة ولا هو ادعى ان الرقم خطأ ، بل حياه وناداه : «عمي» ، فله بالأسرة كلها صلة وثيقة ، اعضاء معه في النادي ، وجميعهم من أنصار فريقه . فهنأه ابوها بحماس شديد ، ثم قال له :

— لحظة واحدة يا « حسن » !

وأمسكت « عفت » بالتلفون وقالت له :

— « تعال غداً الى ناديها الهادىء بين اشجار « الزيزفون » اقدمك اليها ! »

ذهب إلى ناديها بعد ان حبس جسمه الرياضي المتفجر داخل حلة كاملة محترمة ، أزر سترتها بعناية . ثم انغمس في صراع مع شعره كي يجمع شعثه ويربض فوق راسه مهذباً .

وتزوجها . كان لا بد أن يتزوجها . لعلها تحادثه . . لعلها ترفع اهدابها المسدلة فيقرأ شيئاً ما في عينيها . . وهي تغضي كثيراً . لعلها تهتم بلعبة كرة القدم !

وقد حادثته . . ورفعت اهدابها ، وأحبته . . وأحبت لعبة كرة القدم . وحادثها وأحب لعبة « التنس » من اجلها . أحب السحاب السابح الذي تحبه . . والنجوم المتناثرة التي تحصيها . . وخضرة الطبيعة التي تهواها ، وهدأ . وأحبت هي حقل اللعبة . . وأحصت ساعات التمرين كأنها ساعات عمرها . . وتتبعت ايام المباريات بلهفة وشوق واهتمام ، ودبت حيوية في يديها الساكنتين على حجرها ، وانبثقت حياة في شفتيها ، كمي الوردة المطبقين . .

وعندما أصيب تلك الاصابة البالغة في ركبته وحملوه إلى عشهما غارقاً في اغماءة عميقة ، كانت هي جالسة في أول صف ، ترقبه وتدعو له . . وكفاها تتشبث احداهما بالاخرى وتدقان صدرها . ثغرها مشقوق عن شهقة خرساء وعيناها على وسعهما تحصيان كل حركة وكل وثبة وكل ضربة كرة موفقة ، وأنفاسها في صدرها قصار متلاطمة متضاربة ترتد عن حلقها . فلما لمحت ذلك الرجل الماكر في الفريق الآخر يوجه ضربة خبيثة إلى ساق « حسن » وسط زحام اللعب والكر والفر ، قفزت ملتاعة تصرخ :

— « الماكر . . الماكر ! »

ولكن لا فائدة ؟

حملوا « حسن » الى بيته مصدوع الركبة .

وما حدث بعد ذلك سيظل يجثم كالكابوس الرهيب في ذاكرة « مها » . اطباء وزائرون وأهلها وأهله . ثم اطباء وأخصائيون وجراحون .

وأخيراً طوى كبير الجراحين نظارته ببطء وعناية قصوى كأنما كل عبقريته تكمن فيها ، ثم وضعها داخل علبتها ، ثم مسح على شاربه مرة بعد مرة في تفكير وحيرة وتردد ، ثم قال لها وهو يضع يده على كتفها :

— « اسمعي يا بنتي . . لا بد من بترها ! »

فترنح عشهما الصغير في خطر كأنما أغار عليه صقر . وعلت ضوضاء عاصفة اطاحت بهدوئه . وتضاربت الآراء وانقسم الأهل على أنفسهم ، وافق البعض وعارض البعض الآخر باصرار . وكان « حسن » على رأس هذا الفريق . سخر من الأطباء الذين افهموه ان

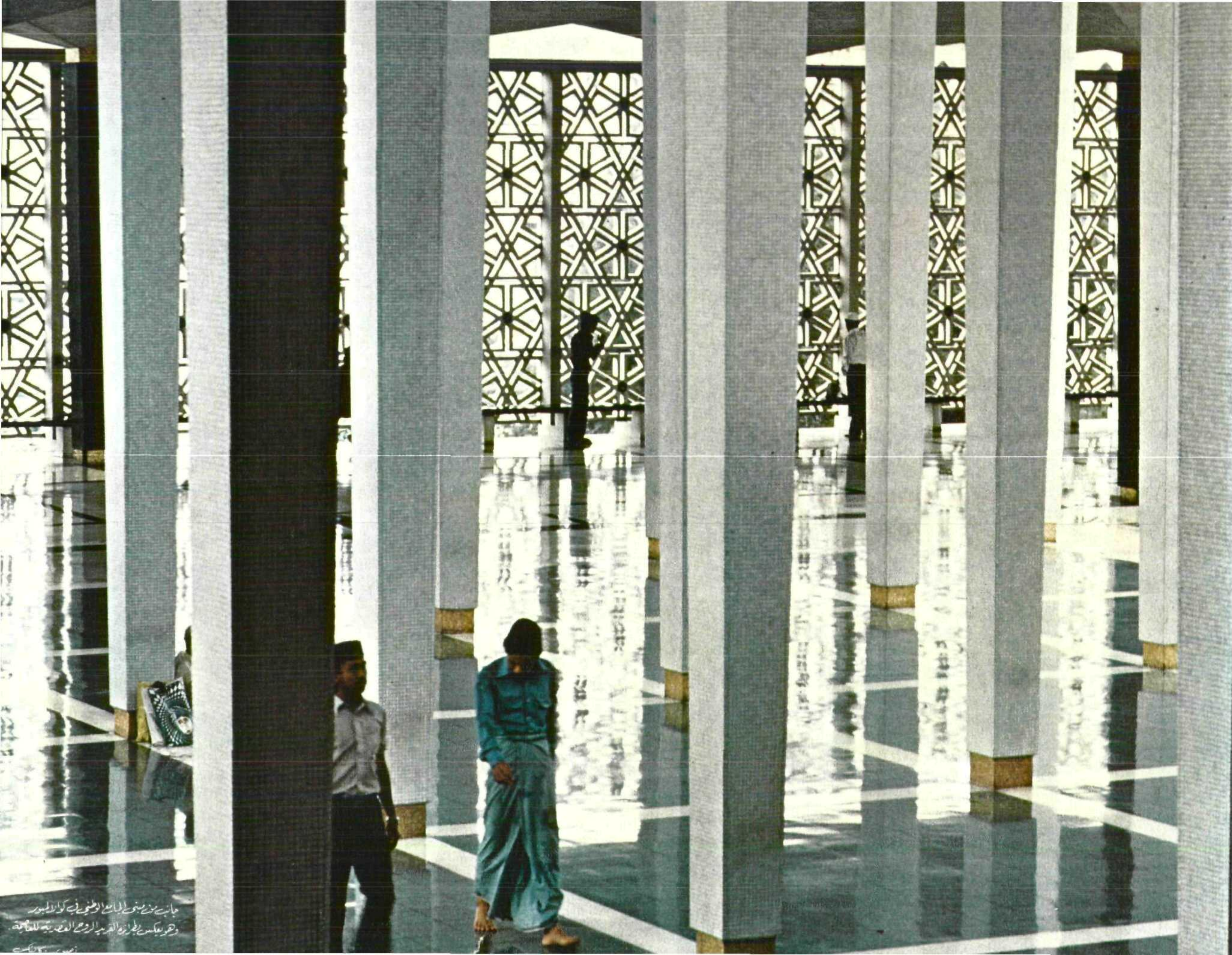
حياته في خطر . وصاح :
— « لن أعيش عاجزاً يوماً واحداً — موتي أحسن ! »
فارتمت « مها » إلى جوار سريره تخفف عنه آلامه وتمسح بذراعيها على ساقه .
« حسن .. حسن ! »
— « حرام يا « مها » ! انت شابة وعروس ! »
— حسن .. حسن !
— أبداً » يا « مها » لن أدعك تخجلين من زوج كسيح ! »
فوضعت انملتين بسرعة وعتاب فوق شفتيه تصدان الكلمة القاسية . وابتسم لها ، لكنه هز رأسه يشيح عن الحافها :
— « ابداً يا « مها » — ابداً ! »
عبثاً حاولت اقناعه فهز الأطباء اكتافهم وانسحبوا ، واحداً وراء زميله وعلى وجوههم مسحة حزن .
فصرخت « مها » وتعلقت بكبيرهم . فتوقف في عطف حتى هدأت واستمسكت ، فقال لها وهو يتأمل الدموع في عينيها :
— « افهميني يا بنتي .. لا بد من بترها ! »
وكان ابوها قد اشار بتخديره خلسة ثم بتر تلك الساق التي تهدد حياته كلها وكان الجراح الكبير قد اعترض بشدة :
— « لايمكن ! هذا ضد القانون . لا بد من اقناعه وموافقته . ثم ، ما القول في الصدمة العصبية عندما يفيق ؟ انها تكون ابعد خطراً حينئذ ! »
فأطرق الجميع ومزع « حسن » اعصابهم .
تمر الايام وتزداد حالته سوءاً ، ويزداد هو عناداً ، حتى حدد لهم الاطباء يوماً تصبح الجراحة بعده بلا فائدة وكانت « مها » تتلوى في حرقة وتقول لهم في ضراعة :
— « خذوا من دمي ، من شبابي ، من عمري . وهبوه صحة وعمراً ! »
. . . وهي قبل غيرها تعلم تمام العلم انه لا جدوى لضراعتها هذه وكلامها هذا . ان حياتها غالية ، ولكن ما معناها عندما تخلو من « حسن » ؟ ارتعدت « مها » . حياتها غالية ولكن اغلى منها قلب « حسن » قلبه وحبه وثقته . ثقته ! قلبه ! حبه ! لاكت « مها » هذه الكلمات في عقلها بترو كأنما تستمرئها . أشياء غالية ، لكنها ستضحي بها من اجل انقاذ حياة « حسن » . انها الخيط الرفيع الباقي لها من الأمل . جميل الحب ، ولكن اجمل منه التضحية .
وهرولت « مها » خلف الجراح الكبير ذلك اليوم وهو يهم بمغادرة البيت يائساً بعد أن بسط رأيه في صراحة ووضوح .
وفي الدهليز الصغير وفي غفلة من الجميع وعتمة المغرب تحط على الكون وعلى ضوء مصباح ضئيل اتفقا .
وضغط الطبيب على كتفها وقال :
— « انت انسانة .. انسانة ! »
ومنذ تلك اللحظة ، غابت عن الحجرة التي يرقد فيها « حسن » .
فاذا سأل « حسن » عنها تلعثم الطبيب ، ثم عبس ، ثم هرول مضطرباً إلى الخارج وجاءه بواحد من اهلهما . فيقول له :
— « مها » اصطحبت جارتها الى حائكة الثياب ! »
وتعود « مها » فتندفع داخلة إلى حجرة « حسن » بشبابها كله وجمالها كله فيرمقها بسقمه وهزاله ويسألها محموماً :
— مها ؟ ماذا جرى ؟
فتهز كتفها بدلال وهي تمشط شعرها بأناملها ولا تجيب . فيحتد :
— « مها ؟ أين كنت ؟ »
فترتجف ، وتتلفت حولها كأنما تبحث عن خلاص وتزدرد ريقها بصعوبة وتقول له :
— انا ؟ انا كنت في السينما يا « حسن » !
— ولكن ابن خالتك قال لي انك عند الحائكة ! »
— « الحائكة ؟ أنا ؟ آه بالحق .. انا كنت عند الحائكة ! »
فيتدخل الطبيب :
— « يا استاذ « حسن » ارجوك ، كلمني بجد ! ماذا قلت في شأن الجراحة ؟ »
فتتغاضب « مها » وتلوح في وجه الطبيب .
« ياشيخ قال لك الف مرة : لا ! ألا تفهم ؟ فض السيرة ! »
فيعجب « حسن » ويسألها بمرارة :
— « كنت متحمسة للجراحة — ماذا جرى ؟
فتهز كتفيها بلا اكتراث :
— « ما دمت انت يا صاحب الشأن ، ترفض فلا حق لأحد في التدخل في أمرك .. الساق ساقك ! »
وتخرج وتتركه وتغيب عنه ساعات ، اياماً ، ويسأل عنها فتدخل له متذمرة متبهرجة تعتذر اليه عن التأخير بكذبة جديدة .
فانهار .
كانت ساعة مغرب .. وكآبة تحط على القلب .. والبيت خال الا منه ومن طبيبه .. و « مها » قد اقامت ضجة كبرى في الحجرة وصاحت ولوحت في وجهه .. وقذفته ببعض كلمات عن ضيقها وتبرمها بالبيت وبمن فيه .. وعن حلاوة الدنيا — في الخارج ، ثم خرجت وصفقت الباب خلفها .
فانهار
القى بجذعه على الأرض على حين ظلت ساقاه هامدتين على السرير . ارتمى يتلوى وينشج في حرقته ، في عذابه في حيرته القاتلة .
وكان الطبيب يرقبه عن كثب .
فاسرع اليه واحاطه بذراعيه يرفعه إلى سريره .
فتملص « حسن » منه ، يصيح بين نشيجه :
— « دعني .. دعني أمت ! »
فثار الطبيب :
— مت اذن — مت يا مسكين ! انت تريد ان تموت وهي تريد لك ان تموت !
فلما حملق فيه « حسن » بجنون ، اضاف :
— أجل ، تريد لك الموت ليخلو لها الجو فتتزوج « محسن » !
فصرخ كأنما طعنه :
— « محسن ؟ من « محسن » هذا ؟ »
فغرز الطبيب السكين حتى نصلها :
— « حبيبها — حبيب زوجتك الذي يحادثها كل ليلة حتى الصباح وهي مستلقية في استرخاء والتليفون في حضنها ! ألا تراها الان تعارض في الجراحة التي ستنقذك ؟ لماذا ؟ ألم تسأل نفسك ؟ »
فصرخ « حسن » .
« أبداً لن امكنها ! المخادعة . المخادعة ! سأعيش لانتقم منها ! سأعيش .. سأعيش ! »
وتلك الليلة عينها ، وعلى باب حجرة الجراحة سهرت « مها » حتى الفجر محتقنة العينين ، شاحبة الشفتين ، وحلقها جاف تدعو وتدعو .
وبرز الجراح الكبير في ثيابه البيضاء يتصبب عرقاً . فما لمحها وسط الأهل الكثارحتى هرول اليها دونهم يأخذ يديها كلتيهما ما بين يديه ويربتهما بحرارة ، ويربتهما :
— « انت انسانة .. انسانة ! » ●

جاذبية صدقي — القاهرة



أحد النواعير المنتشرة على نهر العاصي في منطقة حماه بسورية .

راجع مقال : نهر العاصي



جانب من مبنى الجامع الوطني في كوالالمبور
وهو يعكس بطرازه الفريد الروح العصرية للعمارة.